مختارات فصول

# أسباب للكي بالنار

خيرى شلبى

٤٩

**مختارات فصول**
سلسلة أدبية شهرية
تصدر عن
الهيئة المصرية
العامة للكتاب



الغلاف للفنان

سعد عبد الوهاب

مختارات فصول - مختارات فصول - مختارات فصول

# أسباب للكى بالنار

( قصص )

خيرى شلبى

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٨

# كــلوا باميــه

اللعبة من أساسها أن فريقا يجب أن يركب فوق فريق ، فأى الفريقين يركب الأول ؟ ذلك يقتضى لعبة أخــــرى ·· ولكن كيف يصبح هناك فريقان ؟ · أولاد الحارة والحوارى المتاخمة كلهم فى الجرن ساعة زهزهة القمر ·· لابد أن يتوفر ولدان من الأشقياء مثل «محمود القرن » و « جنوم » ، تسفر عنهما معارك طويلة بين هذه الحوارى كلها منذ الطفولة المبكرة · اذا اجتمعنا فى الجرن حقت اللعبة ·· أى لعبة لابد لها من فريقين ·· يقف الولدان فى الساحة كل منهما شاهرا زندد متحديا ·· يبدأ أحدهما بما يسمونه بالمطالقة :

ـ طالقنى ··

ـ طالقتك ··

ـ بزندى ··

ـ فلقتك ··

ـ اخترلك واحد ··

ـ اخترت فلانا ·

فعلى من يسمع اسمه من العيال ان ينسلت فى الحال وينضم

الى رحاب من اختاره · ثم تبدأ المطالقة من جديد بين الشـــقيين الكبيرين · بذلك يصبح ثمة فريقان لكل منهما ولد متين يقوده فى مواجهة الفريق الآخر ·

ثم تبدأ اللعبة بلعبة اسمها « كلوا بامية » · بأن يقف الفريقان فى صفين متقابلين ثم يرددون ، معا وفى نفس واحد عبارة « كلوا بامية » بلهجة غنائية ممطوطة مصـــحوبة ببسط الأكف فى مواجهة بعضهما البعض وجعلها تتماوج مع صوت الترديد ، بشرط أن تتوافق تموجات كل فريق · فاذا انقلبت الأكف فجأة على الوجه الآخر فانها لابد أن تنقلب كلها دفعة واحدة · فان شذت يد أو تأخرت فان فريقها يكون مطية حلالا للفريق الآخر ، يصطف الفريق المخطىء ويطأطىء عياله رءوسهم مع احناء ظهورهم والاستناد بأكفهم على ســـيقانهم ليكونوا كالحمير سواء بسواء ، فى فرح يجىء الفريق الفائز ويتسلق الظهور ، كل راكب بمركوب غير أن الفريق الراكب قبل أن يمتطى الظهور يكون قد انزوى مع ولده ، الذى يعطـى لكل منهم اســـما مستعارا غير اسمه الحقيقى ، أى اسم يخطر على باله لحظتها ، ثم يتركهم يملأون حجورهم بالتراب ويركبون ، ليقوم هو بمهمته ، حيث يكون ولد الفريق المهزوم قد تقرفص فى مواجهة الصف الذى صار مكونا من راكب ومركوب · فيجىء ولد الفريق الراكب فيرفع ذيل جلبابه ويلف به رأس ولد الفريق المركوب ، وفوق ذلك يضع كفيه على عينيه حتى لا يرى من خلال الجلباب ، ولد الفريق الراكب دائما خبيث ، يتلكأ حتى يكف الصياح وليســـتمتع فريقه بركوب أطول ، أخيرا يصيح آمرا :

– لا ينزل ولا يتزلزل ·· الا سفير جهنم ·

على الفور يكون حامل هذا الاسم قد طوح ذراعه فى الهواء وقذف الشقى المعصوب العينين بحفنة من التراب فى وجهه · على

الشقى المعصوب العينين أن ينطق فى الحال بالاسم الحقيقى للشخص الذى قذفه بالتراب ، فان كشـــفه على حقيقته ينهزم الفريق الراكب وينهض الفريق المركوب ليركب ٠

حلو هذا الكلام ؟ حلو ٠ أنا لم أزعل أبدا لآن قرعتى جعلتنى فى الفريق المركوب ، فأنت تركبنى وأنا أركبك ولكن بالأصول ٠٠ غير أن هذه الأصول فى عرف العيال أمثالنا تصبح محتاجة لشىء من الزلزلة حين يبدو أن ركوب الراكبين بلا نهاية ٠ ولقد انقصم ظهرى والولد المعصوب العينين يتلقى سفع التراب من كلناحية ويعجز عن تحديد مصـــدرها ، أعطونى عقلكم ، لقد غلبنى النوم وأنا منحن بحملى ، فأخذتنى ســـنة فرأيت ولد الفريق الراكب وولد الفريق المركوب يتضاحكان فى سعادة ويحتضنان ويفعلان معا ـ فيما بدالى ـ قلة أدب ، فارتعشت ، وفتحت عينى من خوف ومن فزع ، فرأيتنى لا أزال منحنيا وراكبى يزداد ثقلا فوق ظهرى ٠٠ والولد المعصوب العينين يتلقى التراب دون ملل ٠ فان هى الا برهة وجيزة ساهيتهم جميعا واندفعت من بين ساقى راكبى فوقع فانكسرت رقبته فواصلت الجرى حتى دارنا ٠٠ فهل أنا غلطان ؟ ٠٠

# الفرجـــه

لست أذكر بالضبط متى جلست أمام هذه الخشـــبة فى هذا المسرح . بل اننى لم أكن أعرف اننا فى مسرح واننا نتفرج الا منذ وقت قريب وبعد أن جلل الشيب فودى . ويخيل الى اننى فى جلستى هذه على نفس هذا الكرسى منذ أن جاءت بى أمى ذات لحظة بعيدة جدا الى هذا المكان واسلمتنى الى من أجلســـنى ، وربتت كتفى والقمتنى حبة بونبون وزعمت انها عائدة لتأخذنى بعد قليل ثم لم تأت بعدها أبدا — الواقع اننى غير واثق تماما من هذا ولكن أذكر أننى كنت أتسلل خارجا للحظات أذهب فيها خلسة الى العمل أو دورة المياه أو لمقابلة فتاة ضالة أو للوفاء بموعد مع صـــــديق غريب .

ولم أكن أعرف اذا ما كنت أحب الفرجة على هؤلاء القوم أو لا — كما لا أعرف ان كان الواقفون على الخشبة تحت دائرة الضوء ممثلين حقيقيين أو أدعياء أو مجرد دمى تحركها يد خفية غير منظورة .. لكننى كنت قد بدأت أعرف أن فى الأمر ثمة مسرحية غامضة وأن علينا جميعا أن نتابعها بدقة وانتباه حتى لو لم نكن نفهم منها شيئا على الاطلاق ! .

كذلك كنت أعرف أننى وهذا الحشد الهائل من الجماهير نجلس فى هذا المكان بحكم الانتماء لا بموجب تذكرة أو بطاقة دخول ، واننا

لهذا نحبه حبا شديدا حتى ولو كانت جلستنا فيه غير مريحة ودورات مياهه تعج بالغائط النتن وتطفح ما فى جوفها على أرض الصالة الممتدة بلا نهاية ثم بدا أن ظلالا من الكآبة تلقى بثقلها على صدورنا جميعا ٠

فلما أن أطلت لنا من عيوننا هذه الأثقال فسـرناها بفعل الشيخوخة التى نصفها دائما ـ تعزية لأنفسنا ـ بأنها على غير أوان، ثم اذا بنا فجأة نكتشف ـ بفعل ريح خرقاء ـ ان المسرح كان بلا سقف وان الزخرف الجميل الذى كان يغطينا كان فى الأصل قماش خيم قبل أن تأكله يد البلى وتطير الريح بقاياه ، ثم اذا بالنوافذ والمنافذ والأبواب قد فسدت أقفالها وانتزعت أبوابها فصارت تيارات الهواء تتلاقى وتصطك مرعدة وتكاد تبعثرنا جميعا فى صراعات ، واذا بكل المتابعين على خشبة المسرح قد بعثرت ثيابهم عن أجسادهم وظهر عريهم الغليظ وعوراتهم القبيحة حتى بات النظر اليهم فى حد ذاته شيئا مؤلما بل أشد ايلاما من العار نفسه ٠ وكان من الواضح أن جميع الجالسين برغمهم فى صالة الفرجة يحسون بالعار الأهم ٠

وكان الشعور بالخزى والتقزز قد دفع بعضنا الى محاولة الخروج من الصالة الى الشارع ٠ وكنا نعمل حسابا للبوابين الذين لابد أن يأخذوا علما بخروجنا كى يسمحوا لنا بالدخول عند العودة ٠ وكنا نسخر منهم لأننا سوف لن تعود ان نحن خرجنا هذه المرة لكننا لم نجد على البوابة ثمة من أحد ، ففرحنا فلما اندفعنا فى سبيل الخروج وجدنا أن عتبة باب المسرح تقف بنا على ارتفاع شاهق وان الفراغ من تحتنا عميق عميق عميق ٠٠ وليس الى الأرض ثمة من سبيل ٠ انهارت قلوبنا فى الفراغ القاتل الا أن ثمة احساسا داعينا بان الأمر ربما كان مجرد رادع جهنمى الهدف منه أن نعود الى أماكننا لنواصل الفرجة على نفس الناس ٠٠ من فرط الرعب صرنا ٠٠ تملقا لهذا الاحساس فحسب ٠ نواصل التصفيق بأكف ملتهبة ! ٠٠

# أسباب للكى بالنـــار

توبخنى أمى كلما اتسخت يدى ·· وتقرصنى فى خدى قرصا موجعا اذا اتسخت ثيابى ، أو قدمى بالوحل · ولا تكف عن تهديدى بالكى بالنار اذا أنا فعلتها على نفسى أثناء النوم ، ولهذا فاننى أتجنب اللعب بالنار من قريب أو بعيد ، وانفر من شعلة عود الكبريت حين يشعل أبى سيجارته أمامى ·

أما التوبيخ والقرص الموجع فهو يحدث كل يوم ، وأما الكى بالنار فانه قد حدث ذات يوم ، ســـخنت أمى يد الملعقة على لهب البوتاجاز ولسعتنى بها فوق مؤخرتى ، ولايزال موضعها يوجعنى كلما تقلبت أثناء النوم ، فأقوم فى الحال أجرى الى دورة المياه ·· وهكذا عوفيت من لسع النار كل يوم ولكن لم أعد أعرف كيف أنجو من الوسخ والقرص الموجع ··

المصيبة أننى لا أذهب الى الوحل والوسخ ولكنه هو الـــذى يأتى الى ··

ففى الصباح أرتدى ثيابى وفوقها مريلة المدرسة نظيفة ذات رائحة حلوة ، وأعلق الحقيبة الجلدية فى كتفى فوق ظهرى ، وألبس الشراب الأبيض والحذاء الأسود وأضع الشـــلن الفضى فى جيبى بحرص ، ثم تقرصنى أمى فى أذنى قائلة :

« شايف هدومك نضيفة ازاى ؟ ·· أياك ترجع بيها روبة عشان انيلك بستين نيلة » ·· ثم تفتح باب الشقة وتدفعنى الى الخـــلاء وتتركنى أواجه الخطر وحدى ، مكتفية بالوقوف على الباب عاقدة ذراعيها فوق صدرها تتفرج على وتطلق الصياح المتواصل ·

أتخطى العتبة ، لأفاجأ بحوش البيت كله وقد صار بركة كبيرة من مياه المجارى يذوب فيها الغائط ، ارتفعت مياهها وغطت ثلاث درجات من السلم الذى نهبط منه الى الشارع ·

واذ أقف حائرا مترددا موشكا على البكاء تنفجر أمى صارخة فى أن أنتبه لخطواتى ، ثم تندمج فى لعن ناس مجهولين ليس فى قلوبهم رحمة أو ضمير ، فأعرف انها تقصد أصحاب البيت الذى نسكن فيه ، حيث أنهم ابتنوا فوق شقتنا وأمامها وخلفها اثنتى عشرة شقة دون أن يبتنوا لها خزانات للمجارى ، اثنتا عشرة أسرة غير أسرتنا تدلق مياه غسيلها وغائطها لتتجمع كلها فى خزان شقتنا الكائن تحتها وفتحته أمام بابها ·

وكان الحل الوحيد كما يقول أبى أن يتم كسحه بعربة البلدية ثلاث مرات فى اليوم على الأقل ، ولما كان هذا أمرا صعبا فان الجميع استصعبوا مهمة الكسح من أساسها ، خاصة أنهم اذا نجوا من مجاريهم الخاصة لن ينجوا من المجارى العامة التى تنفتح هى الأخرى زاحفة علينا من كل ناحية · تغرق الشـــارع كله وتصـــنع بركا ومستنقعات متجاورة تطفح بالنتن ··

وثمة ناس يظنون أنهم من أهل الله يتطوعون بجلب عربات كبيرة من التراب والرمل يدلقونها هنا وهناك لتصد غائلة الموج النتن عن مداخل بيوتهم ، ولكن السيارات تمر فتحفر لنفسها قنوات غائرة ، والناس يمرون فتصنع أقدامهم مدقات رفيعة لولبية ، والمياه

النتنة لا يحتجزها حاجز ، فتلف حول الأكوام الهرمية ، حتى باب الشـــارع والمدينة كلها مجموعة من الاهرامات القـزمية مزروعة كجذوع أشجار خرافية وسط بحر من الغائط النتن ٠

أحاول فى وقفتى على العتبة تذكر الناس وكيف يسلكون طرقهم لكى أفعل مثلهم ، فأرى الواحد منهم أفنديا محترما نظيفا يمشى على مدق رفيـــع حول كومة هرمية ، ثم يقفز مثل الكلب متخطيا بركة عريضة ، ليصـــعد كومة هرمية أخرى ، حيث يهبط من حذائهـا ليتسائد على حائط ٠

أحس اننى لن أستطيع هذا ٠٠ ترتعش ساقى وأهم بالبكاء لولا الخوف من فردة الشبشب التى يمكن أن تجتاحنى فجأة من وراء الباب ٠

أستذكر مواضع القدم التى لابد أن أكون قد حفظت خطواتها بالترتيب اذ يجب على أولا أن أتقدم بحذر لاضع قدمى اليسرى فوق حجرة كبيرة مدببة مثبتة بجوار فتحة الخزان المختفية تحت عمق المياه الوسخة ، ثم استند على الحائط لانقل قدمى اليمنى الى فردة كاوتش مثبتة بجوار الحائط تصنع لنفسها بركة صغيرة ، أدوس فوقها برفق ، أظل واقفا على قدم واحدة الى أن أتمكن من نقل الأخرى الى جوارها ثم أحود منكسرا مع الجدار ، سائرا بجواره فوق شجرة ممددة فى قلب المياه كجثة غريق يتيم بلا أهل ولا بلد ، سوف يبتل بوز الحذاء ولا بد ولكننى سأحاول السير بخفة حتى لا تصعد المياه الى داخل الحذاء ٠

وحين انتهى من السير فوق هذه الشجرة أميل لالقى بنفسى فوق كومة هرمية من الرمل الرطب ، مجتهدا أن تقع يدى فوق الرأس الهرمى الذى لم يبتل بعد ، ثم اتســـلق الربوة الهرمية التى ان تجاوزتها صرت فى الشارع العمومى ، حيث توجد مدقات وقطع من

الحجـــر وفـــرد الكاوتش يمشى فوقها الناس ، فأمشى وراءهم فى هدوء ٠

ومهما نجحت فى التزام المدقات المتعرجة والتقافز فوق قطـــع الحجارة فان الخوف يظل يدفعنى الى البكاء ليس خوفا من السقوط فى بحر المجارى وانما خوفا من السيارات التى تقبل خلفى صاعدة هابطة زاحفة والمياه الوسخة تفر من بين عجلاتها صارخة لتصفعنى على وجهى وتغرق ثيابى ٠

وقد تعودت على الشـــروع فى البكاء والانخـــراط فيه كلما أحسست بسيارة مقبلة ، الأمر الذى يدفع بعض المارة الى احتضانى حتى تمر السيارة قائلين « متخافش ياحبيبى متخافش » ، لكن ما أخاف منه يكون قد وقع ٠

أصل الى باب المدرسة والعرق يتصبب منى ٠ يتابعنى الأولاد والمدرسون ضاحكين ٠ أنتبه ، فاذا بمريلتى مبرقشة بالغائط الأزرق وقدمى ملطخة حتى لا أعرف الشراب من الحذاء ٠

يشـــير مدرس الألعاب نحوى بالخيزرانة فأخرج من الطابور ارتعش باكيا بصوت عال ٠٠ يضع اصـــبعه فوق شفتيه هامسا فى فحيح مخيف :

« هس س ٠٠ س ٠٠ اقطع خنس » ٠

ثم يعاجلنى بخيزرانته : « أيه اللى أنت عامله فى روحك ده ؟ »

فأجأر بالصراخ والعواء ، فيكف عن الضرب ليعود فيسألنى ٠ لا أجد جوابا ٠ يقفز بصـــرى المرتعب ، ينحط هناك عند الباب الحديدى المغلق ، أرى صورته تتموج فى مياه المستنقع الممتد أمام باب المدرسة ٠ أتعجب كيف وصلو الى المدرسة وهم على هذه الحالة من النظافة بل كيف وصل بقية الأولاد ٠

وكنت أعرف أن بعضهم جاء المدرسة راكبا سيارة أبيه العائد من بلاد المال ، وأن بعضهم الآخر خاض الوسخ مثلى ولكنه نجا من البرقشة التى تفضحنى .

أعود الى البيت وطعم الدموع فى حلقى جاف وبقايا البكاء فى عينى وعلى وجهى لكن أمى لا ترى شيئا من ذلك ، انها لا ترى سوى شكلى وقد صار كما تقول كأننى ممسحة مسحوا بها أرض الشارع ، فتستقبلنى بعلقة يهترىء لها كل جسدى ، فيما هى تنزع عنى ثيابى وترميها فى حلة الغسالة وتلعن العيشة واللى عايشينها .. فأدخل الغرفة أبحث عن منفذ للهــــرب قبل أن تغير رأيها وتعــود وتضربنى ، فلا أجد سوى النوم طريقا مظلما أختبىء فيه .

وكنت مستغرقا فى النوم ذات ليلة فعادنى الوجع فى موضــع اللسع بالنار ، وأخذ يلهبنى ، وكنت أعرف لحظتها اننى يجب أن أنهض فورا وأجرى الى دورة المياه ولكننى كنت أجد لذة خفية فى المراوغة والاستمرار فى النوم،والمياه المحتبسة فى جوفى تزأر وتحاول الاندفاق وأنا أجاهد لمنعها بالقوة ، ثم بى أسمع صراخا عاتيا تبينت فيه صوت أمى ، تبعه هياج وريح لاسعة ، فانتفضت من الفراش واقفا على الأرض ، فاذا بقدمى تغوصان فى بركة من الغائط الأزرق النتن ، واذ بأمى تصرخ منبهة اياى ألا أتحرك ، فتسمرت فى مكانى أرتعش ، وكانت هى مشمرة ثيابها وكل اخوتى متكورين فوق السرير مثل الكتاكيت الفزعة ، وثمة رجال ونساء من الجيران ينتهكون حرمة بيتنا ويتحركون فيه على راحتهم ، يرفعون الكراسى والدولاب والترابيزات ويستخرجون من قلب المياه الزرقاء أكلمة وحصائر من البلاستك يشر منها الماء ، يمســـكون بالحلل والأكواب والجرادل ويكســــحون المياه الزرقاء من أرض شقتنا التى تحولت الى بحر صاخب هائج تكتسحه مياه المجارى متسلقة السرير والدولاب وكل شىء . كأن مستنقعات البلاد كلها اتصلت ببيتنا بوصلة سحرية ..

وكانت الرائحة النتنة فوق ما يحتمله أى انسان • وكان أبى قد عاد من الشــــغل فخلع بذلته الأنيقة ورباط عنقه وراح بالفانلة والسروال يساعد الناس فى كسح المياه ودفعها الى خارج الشقة ، حيث ترتد عائدة من جديد اذ لم يعد الشارع فى حاجة الى مزيد •

وكانوا جميعا يسبون ويسخطون فأعرف من سبهم وسخطهم أن مياه المجارى قد طفحت من عندنا ـ أى من داخل البيت ـ وأبى يرد مؤكدا أنها اقتحمتنا من الشارع ، فيما تصيح أمى مؤكدة أنها نزلت علينا من فوق •

ويجىء من عند دورة المياه صوت رخو أعرف أنه صـــوت جارتنا اللعوب الحسناء ، التى يتهمها أهل الشارع بأن هذا المستنقع كله تخلف من استحمامها فى الرذيلة كل يوم ، كان صوتها يقول فى ولولة طرية ممطوطة أن صنابير مياه الشرب تصب هى الأخرى ماء وسخا من مياه المجارى ، وأضافت قائلة :

« لا من فوق ولا من تحت ياحبة عينى دى باينهـــا من كل ناحية » •

وكنت مسمرا فى جلستى على حافة السرير أخشى السقوط ، وأحس اننا سنبقى هكذا مدة طويلة جدا ربما كانت بلا نهاية • ثم تذكرت أن المياه المحتبسة فى جوفى تريد الاندفاق فى الحال فشرعت أبكى منبها الى ذلك • وسط المحنة ضحكت جارتنا اللعوب ، وجاءت بالقصرية حيث وضعتها بين ساقى وساعدتنى فى تشـــليح ثيابى فاقشعر بدنى ولكنها بيديها عدلتنى فى الوضع الذى يجعل بولتى تسقط كلها فى قلب القصرية • وكنت أراهم جميعا غارقين فى الوحل والغائط ، وكان ذلك يحزننى ويرعبنى ، لكننى كنت أشعر بشىء غريب كأنه السعادة يتمشى فى مؤخرة رأسى ، ولم أكن أعرف هل هو سعادة أم لا ، ولكننى كنت أتوقع أنى من غد ربما نجوت من التوبيخ والقرص والكى بالنار •

# الساعة

كنت أسير بشارع مزدحم وبراق ، أظنه شارع سليمان أو ما أشبه • كنت أدفع جموعا هائلة من البشر فى كل خطوة حتى أخطو • وكانت نساء القاهرة كلهن عاريات تفوح منهن رائحة الغاز ، وهناك رجال يشبهون أنابيب الغاز يلعقون ظهور النساء ويضعون لهن النقود بين أثدائهن وبين أفخاذهن • فجأة رأيت أخى الصغير بجلبابه البلدى وطاقيته البيضاء ، تفصلنى عنه أكتاف وأفخاذ وأثداء •• فرحت برؤيته ، أخذت أشرئب بعنقى لكى يرانى •

كان هو الآخر يشرئب بعنقه ، حتى اذا تقاربنا بدا كأن كلا منا سيمضى فى طريقه لكن كلا منا تهيأ لكى يسلم على الآخر ، ولما مددت يدى مد هو الآخر يده من خلال الموانع الكثيرة وتلاقت يدانا فى لمسة سريعة تلقينا بسببها زجرا وشتما وتوبيخا واتهامات كثيرة •

ثم ذهب لا أدرى الى أين • فتذكرت فى الحال اننى لم أكن رأيته من سنوات • وتذكرت أننى كنت أريد أن أسأله عن أشياء كثيرة جدا •

وانتصب سؤالى : ألم تعرفوا بعد شيئا عن أخى الأصغر الذى لم يعد من الحرب ؟ ولكن السؤال لم ينطلق •

وفى الحال رأيتنى أسير فى جنازة ، وسألت عن الميت فقيل لى أنه زوج شقيقتى الكبرى وأنه مات فى الحرب وجاء خبره · وكان يخيل الى أن الذين يسيرون فى الجنازة حولى سيلومونني اذا انفردوا بى ولكنني لم أكن أعرف بالضبط علام اللوم · ثم اننا وصلنا الى مكان أظنه المقابر ، شيء واحد أكد لى أنها المقابر ، ذلك هو الجميزة العتيقة التى تتوسط مقابر قريتنا

وبينما كنت أقف بعيدا عن الذين راحوا يقيمون الصلاة على الجسد رأيت أخى الأصغر الذى لم يعد من الحرب حتى الآن والذى لم نتمكن من جمع أى معلومات عنه رغم أننا سألنا فى كل مكان · كان وجهه المستطيل ببشرته البيضاء مثلما عهدته ضـــاحكا على الدوام · كان يرتدى جلبابا ويتحزم فوقه بحزام الجند · احتضنته وبكيت ·

ولما قلت له اننا دخنا فى السؤال عنه ابتسم كالعادة وقال اننا ماكان يجب أن نسأل · ثم سارت الجنازةمن جديد لتدخل قلب المقابر وكان ثمة شيء من الاحترام يغلف الموكب رغم أننا من عائلة غير جديرة بالمجاملات ، وقلت لنفسى :

هكذا تكون جنازة الشهداء الأبرار · وأحسست بالغيرة من المرحوم ·

لكنني فجأة اكتشـــفت أن الدكتور هنرى كيســنجر والرئيس نيكســـون والرئيس فورد يســـيرون فى مقدمة الجنـــازة وكانوا أيضا يتلقون العزاء ، وأهل قريتى يحضرون فى شهامة ويسلمون عليهم ويبتسمون مثلهم · وفجأة لم يعد هناك أحد على الاطلاق ، ولم أكن أرى أمامى سوى صحراء مترامية الأطراف تفح بالصهد ورائحة الغاز ، وكان ثمة صوت لفقيه يرتل القرآن فى مكان ما ، وكانت الشمس المعلقة فى السماء تتدلى فى الأفق البعيد مثل ساعة بلا عقارب وبلا ميناء ·

# فرافــة الســيارات

أفقت من النوم فجأة مثلما كان قد دهمنى فجأة ، كان أول شيء لقى بصـــرى هو لمبة « الدينامو » الحمراء وبجوارها لمبة الزيت ذات اللون البرتقالى ، وكان محرك السيارة قد توقف وكنت لا أزال جالسا على مقعد القيادة وحدى ، ولست أفهم لماذا توجست فألقيت نظرة حذرة على المقعد الخلفى والمقعد المجاور لى · كان صف من السيارات يحاذينى لا يفصلنى عنه مقدار اصبع ، بحذائه على اليمين صفان آخران وبحذائى على اليسار ثلاثة صفوف ، بعد برهة تبين لى أن صفين منهما راكنان حيث لا تظهر من خلال زجاج السيارات رءوس سائقين ··

عربة نقل الموتى هى التى تقف أمامى مباشرة وتحجب عنى الرؤية تماما ، بصندوقها الرمادى الداكن الكئيب ، وعبارة « تحت الطلب » تتلوى كالثعبان على جدران صندوقها الذى يشبه المقبرة · لم يكن ثمة صوت لمحرك أى سيارة من حولى ، قدامى أو خلفى ، ولا أعرف ان كان سائقوها قد أوقفوا المحركات يأسا من الحركة أم أنها توقفت من تلقاء نفسها بعد نومهم كما حدث معى ··

كذلك لا أعرف منذ متى توقفنا فى هذه المنطقة ولماذا · بحثت عن اشارة مرور حمراء فلم أجد · فتحت باب السيارة ونزلت · رميت البصر أمامى ، فتعثر فى أسقف صفيحية حديدية خشـــبية

بعضها صدىء وبعضها مصقول ، لمركبات متوقفة فى مكانها لا حد لنهايتها وعلى مدى ما يستطيعه البصر ليس ثمة من دليل على وجود اشارة من أى نوع ، فكان من المستحيل أن أعرف سبب توقفنا أو منذ متى توقفنا ..

الراجلون يتدفقون من أماكن مجهولة ، ينســـربون من خلال السيارات ، يتقافزون كالقرود المدربة . استحليت مراقبتهم لمعرفة كيف يتسنى للمرء منهم أن ينفذ من بين سيارتين فى حين أن أوسع مســـافة بين سيارتين تكفى ـ بالكاد ـ لنفاذ عرسة .. ثم أننى استحليت الأمر أكثر وأكثر ، حيث تكشفت لى مواهب عظيمة فى أبناء جلدتى المصرية ، هى قدرة الواحد منهم على امتصاص نفسه الى داخله حتى ليصـــير حجمه فى رقة حجم العرســـة ، حتى ذوات المؤخرات القباب العاليات كانت القبة تعلو فجأة كالمطاط فيما تنضغط المؤخرة ويلفظ الجسد نفسه من بين سيارتين فى كل خطوة ..

تذكرت أننى كنت ذاهبا فى مشوار شديد الأهمية قررت بالأمس ومن قبل الأمس بأمس أن أذهب اليه لانهيه ، بحثت فى ذاكرتى عن المكان الذى كنت أقصده والأمر الذى كنت أعنيه من ورائه فلم أستطع وان كنت لا أزال أثق أنه هام وضرورى ، بدليل أننى أنقله كل يوم فى مفكرتى لليوم التالى بالقلم الرصاص الملحق بها ، كرة سوداء فى أول السطر ، ثم كلمة واحدة ألخص بها المشوار أو أرمز بها اليه .

كان يجب أن أنوه بعض الشىء بكنه هذا المشوار أو طبيعته على الأقل .

لماذا لا يصرح الانسان فى مفكرته عن مشاويره ومواعيده بدقة لكى ينفذها بدقة ؟ أهو مسايرة لطبيعة المفكرة التى تقتضى رمزا فحسب ؟ فلماذا لا يكون هذا الرمز صريحا معبرا ؟ ..

أم أن الانسان يخشى أن تقع منه المفكرة فيلتقطها أحد فيطلع على أسراره بالمجان ؟ لست أعرف ولكننى ارتعد اذا ضاعت مفكرتى - رغم أنها مبهمة - أو دليل تليفونى الصغير - رغم اقتصاره على خيرة أصدقائى - ولهذا أضعهما فى مكان دفين يعوقنى أحيانا عن سهولة استخدامهما ، مثلما أضع سلسلة المفاتيح بحرص شديد فى جيبى الداخلى الصغير حتى لا أنساها فى مكان ما فأتشرد يوما أو بعض يوم أو ربما الى مالا نهاية ، رغم أنها لم تعد تستخدم فى فتح شىء ذى بال ، كثيرا ما انتويت تخفيفها ، والابقاء على مفتاح السيارة وحده ولكن وجوده بين مجموعة من أبناء جنسه بدا لى أكثر حفاظا عليه .. أخذت يمناى تداعب سلسلة المفاتيح فى ثقب « المارش » ويسراى تداعب جيوبى بحثا عن المفكرة فلم تصطدم هذه ولا تلك بشىء ، ففزعت ، وصرت أمعن فى البحث بدقة وأنا أتعجب كيف دارت السيارة بدون مفتاح ، حاولت تذكر متى ركبتها وأدرتها فلم أفلح لأن ذلك بدا لى منذ زمن بعيد بعيد بعيد ، كذلك حاولت تذكر آخر مرة أخرجت فيها مفكرتى فلم أفلح .

أحسست بقلبى يغوص فى دوامة من الاضطراب والقلق بردت له كل أطراف حيث تذكرت فجأة أن بطاقتى العائلية ورخصتى السيارة والقيادة كانت فى أحد جيوب المفكرة ، ثم ان حقيبتى نفسها ليست موجودة هى الأخرى مع اننى لم يحدث فى يوم من الأيام أن خرجت بدونها لأنها تنفعنى على الأقل فى حمل البطاقات التى بدونها لا وجود لى فى هذه المدينة :

البطاقة العائلية والبطاقة الفئوية والبطاقة التموينية وكارنيه النقابة وبطاقة التموين وكارنيه الأمن لدخول المصلحة التى لا أذكر آخر مرة دخلتها ، وجواز السفر الذى لم أعد استخدمه مطلقا ..

أخذت أنفخ من الغيظ وأقاوم الرغبة فى الصياح والبكاء بصوت

عال . يطرأ على ذلك الخاطر التقليدى المتاح ينبهنى بتأجيل ذلك الآن حتى لا أنشغل عن الطريق وقيادة السيارة . أنظر حوالى وأسأم رؤية أشباه البشر،ولاأحد يقول لى لماذا نحن متوقفون هكذا ومنذ متى . تبينت أننا فى شارع عمومى دائرى حول المدينة ، على اليمين ـ بعد صفوف السيارات ـ بناء من الطوب الأحمر المنسق على شكل مهيب يقف أمامه ثلاثة جنود يشـــــرعون بنادقهم فى وجوه المارة وأقفيتهم وبطونهم ومؤخراتهم وتستدير البنادق خلف من يســـــتدير ويمتط سلاحها ليمشى وراءه أينما اتجه ، فيما يظل الجندى واقفا بخوذته البيضاء وبذلته السوداء كالخفاش الأبله . وعلى اليسار ـ بعد صفوف السيارات كذلك ـ بناء قديم كالح غليظ الجدران يبدو أنه موغل فى القدم ، سرعان ما تبينت أنه مصنع للثلج . ثم سرعان ما تبينت أن فى الجو أصواتا طغت على صوت الوشيش والطنين المتصاعد من مصنع الثلج ، محركات سيارات أستأنفت الحركة ، موسيقى أجنبية راقصة مصـــــحوبة برطانة أجنبية وفحيح مجون ، صوت الدربكة على الواحدة الكبيرة تتبعها شخاليل تتراقص معها أرداف وأفخاذ تمشى بين السيارات كرقصة الحدأة أصـــــابتها فى السماء رصاصة مزقت جناحيها .

فوجئت بأن صفوف الســـــيارات المجاورة لى من الناحيتين تزحف ، فخيل لى أن سيارتى هى التى تتراجع الى الخلف فداخلنى رعب شديد أربكنى ، ومن ورائى تندفع نوافير الصـــــياح الآلى المقلق المتدفق

تبينت أخيرا أن على أن أدير محرك السيارة فلم أجد المفتاح ومن حسن الحظ أن « الكونتاكت » كان مفتوحا . طلع لى من تحت الأرض من رأيته يدفع سيارتى بيديه قائلا لى : عشق . فوضعت عصاة الفتيس فى خانة السرعة الثانية ثم أخذت أرفع قدمى اليسرى عن « الدبرياج » شيئا فشيئا فيما تدوس قدمى اليمنى على البنزين

حتى دارت السيارة كانت عربة نقل الموتى فى انتظارى بل كدت أصطدم فيها بعنف لولا ستر الله وقوة « فراملى » ، ثم صارت أنهر السيارات تتدفق حوالى من كل ناحية ، لكنها جميعا توقفت من جديد ٠

لا أدرى كم مرة من الزمن ، لكننى حين سمعت مزمارا ينبح خلفى رفعت بصرى عن الجريدة التى كنت اتصفحها لأعرف منها عدد السلع التى سوف لن تساعدنى الحكومة فى ثمنها بعد اليوم ، وكنت قد اشتريت الجريدة من صبى يمر بالجرائد بين السيارات مناديا عن هذا النبأ ٠

وجدت الخلاء أمامى متسعا ولا أثر فيه لسيارة نقل الموتى ، فعشقت ودست بنزينا واندفعت وقد سرنى أن السيارة أخيرا سوف تمشى على السرعة الثانية والثالثة بعد طول شخير وعواء على السرعة الأولى ، لكننى فى اللحظة التى سحبت فيها عصا « الفتيس » الى خانة السرعة الثانية توقفت السيارة التى أمامى فجأة فدست « فرملة » الخطر واهتززت فى جلستى ودق قلبى فأغمضت عينى متنفسا الصعداء وقد توقعت أن ينزل سائق اللورى ويوبخنى على اندفاعى ٠

غير أنى حين فتحت عينى وجدت اللورى لم يكن لوريا بل هو صندوق عال فى لون الذبابة الزرقاء التى تعف على جثث الموتى له سلم حديدى وباب بدلفتين يجلس خلفهما شرطيان ببذلتين سوداوين وخلفهما باب حديدى آخر مغلق بقفل كبير من الخارج ، سرعان ما فهمت أن هذه السيارة تنقل فى هذا الصندوق بعض المساجين أو المعتقلين من سجن الى سجن أو الى محكمة أو الى حيث لا يعلم الا الله ٠

كانت راسخة القدم فى وقفتها والشرطيان يأكلان البطاطا

المشوية الساخنة وبين فخذى كل منهما مدفع رشـــاش . تذكرت « سمير » شقيق زوجتى و « شريف » ابن خالتها وقلت لنفسى ترى أيكون أحدهما أو كلاهما فى هذه السيارة ؟ وتقت لرؤية سمير الذى أحبه وأعيره كتبى ، فخفق قلبى بشدة حين تذكرت أن بعض هذه الكتب ربما كتبت عليه اسمى وهى عادة كففت عن ممارستها منذ زمن ..

حولت بصرى عن السيارة بحثا عن نسمة هواء . العربة المجاورة لى على اليمين تقودها امرأة فاتنة ناهدة الصدر ترتدى منظارا أسود ويتصاعد من سيارتها صوت موسيقى أجنبية لذيذة . خلف هذه السيارة مباشـــرة ســـيارة مرسيدس يركبها رجل يرتدى العقال والدشداشة ، منتفخ الأوداج ملظلظ الوجه ، يكاد بوز سيارته يصعد فوق مؤخرة ســـيارة الفاتنة . دققت فى الفاتنة فعرفت انها وجه مشهور . دققت فيها أكثر بحكم الغريزة الجماهيرية ازاء المشهورين حتى لو كانوا مجرمين عتاة فتبينت انها تتحدث مع لابس الدشداشة والعقال فى السيارة المرسيدس الخلفية وذلك عبر المرآة العاكسة ، وكانا يبتسمان فى نشوة من ينجح فى استغفال الحشود ، الموسيقى الصـــاعدة من ســـيارة الفاتنة كانت ذات رائحة مفعمة بالدفء والفسوق ، فعاودت النظر اليها بامعان فلاحظت ان جسدها وان جمد على اطار الجلسة أمام عجلة القيادة فان كل بقعة فيه كانت تنتفض وتتراقص فى لذة مثيرة للحيوان الذى فى داخلى .

أبدا لم يكن ذلك لمجرد اننى لا أتذكر أعضاء جسدها الا هكذا ، لاحظت أن شفتيها تتحركان على الدوام وكانتا تميلان نحو صدرها كأنها تصب الكلام فى ذلك المصحف الذهبى المتدلى من عنقها .

ركبنى الجنون فاستدرت ناظرا بكل انتباهى الى لابس العقال راكب المرسيدس فوجدته هو الآخر يلعب شفتيه ويضغط عليهما لدى

كل جملة فيما يتململ فى حركة موسيقية لشدة سرعتها بدت ثابتة ، ورأيت السلك الهوائى اللامع منتصبا فوق سيارته وفوق سيارتها فقلت لعلهما يمارسان اتصالا خاصا وحديثا على الهواء ، ثم عدت وقلت لعلها أحلام دهماء سقيمة الخيال .

لويت عنقى فى سأم الى الجهة الأخرى ، فرأيت جموعا هائلة من البشر تقف على الرصيف متهالكة تتساند على الهواء ، يطل من عيونها مرات وسأم وانتظار ميت الأعصاب ، عرفت أنهم ينتظرون الاتوبيس ، ثم وجدتنى واقفا بينهم انفخ من غيظ ومن ألم ، ثم جاءت نفس الفتاة التى كنت أقابلها كل يوم على مثل هذه المحطة ، ابتسمت لى كالعادة ابتسامة تقاوم الكد والتعب والهموم والكذب على النفس، وصرت أبرطم والعن كل الرءوس الشاهقة ، وهى لاتنى تهدىء فى أعصابى وأنا اندفع فى مزيد من العصبية والهياج رغم خوف كامن فى قعر البطن ينذرنى بالويل مما أفعل .

ثم رأيتنى منحشرا فى الاتوبيس والفتاة منحشرة بينى وبين الجدار الزجاجي الفاصل بين الدرجة الأولى والدرجة الثانية ، وكنا نتكلم فى مشاكلى فى العمل ، ومشاكلها مع أهلها حـــول انفرادها بمرتبها الذى هو فى الأصل ضئيل لا يكفى مواصلاتها ، ثم نعرج بابتسامة واهنة على موضوع الشقق السكنية التى لم يعد اليها ثمة من سبيل .

ثم رأيتنى نائما على السرير السفرى الصدىء البارد فى شقة حماتى الكائنة بأعماق حارة تسبح فى العفن والظـــلام والرطوبة . وصوت حماتى الممرور يأتينى من الفسحة وينفذ الى أذنى عامدا من تحت المخدة وشرائح التعب الثقيلة ، وصـــوت الفتاة التى باتت زوجتى على سنة الله ورسوله يأتينى هو الآخر من خلال صوت أمها ينتحب فى عذاب مكتوم قائلا :

« وأنا حاعمل أيه بس يارب فى بختى ٠٠ دا غلب ومكتوب على حاروح منه فين وأروح بيه فين ؟ » ٠

لم أغضب لقولها ولكننى عجبت من نفسى كيف تمكنت من معاشرة هذه السيدة التى هى عبارة عن حزمة من الأسى والغلب ملفوفة فى غلاف شكل انسانى ، والتى أن عبرت عن لذتها فى لحظة لذة جاء تعبيرها بنفس هذه النبرة الباكية الاسيانة وهذا الصوت الدامع الشقى ٠٠ تتلذذ مثلما تبكى وتبكى مثلما تتلذذ ٠

ثم تبين لى أن السرير لم يكن سريرا والشقة لم تكن شقة ، بل كان على التحديد الكبينة الخلفية فى سيارتى ٠ ذلك أننى فوجئت باثنين من الأفندية يبدو أنهما من شرطة الآداب يطرقان شـــباك ســـيارتى بغلظة ويشـــيران الينا بالنزول ، فنزعت نفسيـــى من زوجتى وفتحت باب السيارة ونزلت خجلا ، شخط فى أحدهما وتفوه الآخر بألفاظ سباب فى حق زوجتى خيل الى أنه قالها ثم خيل الى أنه لم يقلها واسترحت الى هذا الخاطر ٠ أخرجت من حافظتى بعض الأوراق وتلعثمت قائلا أن هذه زوجتى ، وأننا هربنا من ضجيج الحارة والمدنية ، ثم عدت فقلت بقليل من الغلظة والتحدى اننا فى الواقع ليس لنا شقة نسكن ونمارس فيها حياتنا الزوجية ٠ واننا تبعا لذلك نسرق اللحظات ٠

فلما شخط فى بعنف رافضا هذا الكلام قلت بكثير من الضعف أن العمر فات من بين أصابعنا وانني بعد خمس سنوات من الشقاء فى بلاد الغربة عدت بهذه السيارة المتهالكة ومبلغ ضئيل لم يرق الى مستوى حجرة ، صرفته فى الدخلة على أمل أن نسافر سويا من جديد من أجل البحث عن شـــقة تأوينا ، وها أنتما تريـــان أن العمر قد انسلت من بين أيدينا فى شوارع المدينة فى انتظار شىء لم

يحضر وفى سبيل شىء لم نفعله ولم يعد فى طوق أى منا أن يغترب من جديد فلا يسع المرء أن يظل يضرب فى بلاد الغربة طول عمره .

لكنهما لم يقتنعا بهذه « الفلسفة » الفارغة وأصرا على اقتيادنا الى مخفر الشرطة .

ثم اذا بنا ــ زوجتى وأنا ــ ننام جالسين متحاضنين فى خوف وهلع فوق دكة خشبية فى ليل كالح بارد صلب ، وبدا من الصعب معرفة ما اذا كانت الدكة الخشبية هذه فى مخفر الشرطة أم فى عيادة المستوصف الشعبى أم فى مبنى التليغراف والتليفون الذى انتظر فيه مكالمة أطلبها من البلد فلا تجىء أبدا ، أم لعلها دكة فى الاتوبيس .

وكنت أعرف منذ برهة أن زوجتى راغبة فى الذهاب الى دورة المياه ، وكانت توحوح ، فانهضتها ومشينا على حذر فى ضوء لمبة سهارى مجهولة المكان ، فاصطدمنا فى السرداب بشرطى بدا أنه غير عابىء بأمرنا ، فتحديناه وسألناه عن دورة للمياه فأشار لنا الى مكان بعيد ، ذهبنا اليه ونحن ننظر خلفنا فى كل خطوة . فاذا بنا فى شارع والقيامة قائمة ، عربات الخضر تحمل أكواما من الزبالة تبيعها بالميزان لنساء لا تتعبن من المساومة بخناقات حامية الوطيس ، وعربات رش ودراجات وموتوسيكلات وصناديق آلية تمضى خلال الزحام ترش الناس طينا وغائطا ..

وبدا اننى وزوجتى نقف فوق ربوة عالية قليلا اذ رأينا كل هذه الجموع وحشود الأشياء تلف حولها فى دوامة كقطع الدومينو تحركها كفان غليظان غير مرئيين . صرنا نهبط بين سيول الوحل والقاذورات قاصدين البناء المميز الذى أشار اليه الشرطى . فدخلت زوجتى من باب ودخلت أنا من باب فى الناحية الأخرى وكان الظلام عظيما ونتنا ، أحسست بقدمى تغوصان فى عجين نتن . تحسست

الجدران فى تأفف ولعنت الدنيا وكل شىء بحثا عن صنور المياه الذى كنت أسمع خريره المتواصل فى قعر الكوب الصفيح المخروم لابد من كل ناحية ، ما أن اقتربت يسراى منه حتى اصطدمت يمناى فى جثة متقرفصة فى الظلام فصرخت وصرخت الجثة وانتفضت وانتفضت الجثة ، ووقعت أنا فى معجنة النتن وفر هو هالعا . تشقلبت فى اللزوجة التى بدا أنها لم تعد مقززة ، ثم انتفشت واقفا كبهلوان ، واندفع من داخلى مارد راح يتقافز فى فراغات ضيقة ويتصادم جدران وأبواب خشبية فيدفعها بقوة فتصطك حزساء فيتجاوزها فيصطدم بصره ببروزات أكثر ظلمة على شكل خطوط مستقيمة فأمسك بها فاذا هى شراعة باب حديدى أخذ ينزعه بعنف ، وكان مغلقا من الخارج بجنزير وقفل كبير ، لكن القوة الشيطانية عوجت العمود الحديدى فوسعت المسافة بينه وبين الآخر .

ع

وبدا لى اننى أستطيع النفاذ من هذه الفرجة لو اننى تخلصت من كل ثيابى ، فبكل ترحيب خلعتها واحدة واحدة ثم حشرت نفسى موقنا أن قدرة الناس على امتصاص حجمهم الجسدى كما رأيتهم حين ينسلتون من بين السيارات سوف تكون ـ لابد ـ موجودة فى أنا الآخر ولسوف أحسن استخدامها واذ تمكنت بشق النفس وطلوع الروح من النجاح فى تسريب منطقة المؤخرة من بين العمودين الحديدين أدركت كم هى تجربة قاسية وقدرة يحسد عليها الآخرون . وكان كل همى حين نهضت عن الأرض مثخنا بالجراح أن أتخطى الشعور بالألم لاستبين الطريق منتويا أن استنبت خريطته على التحقيق أن أختار الحوارى الجانبية والشوارع الخلفية التى يعم فيها الظلام حتى استر هذا العرى التام الذى صرت اليه لكننى ما أن وقفت على قدمى حتى صرت أضرب فى التيه كيفما اتفق سعيا الى أى منفذ أو أى مختبر ، وكان ثمة رقعة فى الفضاء يخف عنها الظلام تلوح « كالوشم فى ظاهر اليد » .

صرت أركض خلف الليل وهو لاينى يغير عباءاته من الاسود الى الرمادى الى القرمزى الى البرتقالى الى البياض الناصع الى البياض المصقول تتصاعد من مراياه حشود من ألسنة الضوء الأصفر اللاهب تبدو كالسيوف والحراب تنذب فى أقوى ، العيون ، ولقوتها قد بدا أنها اخترقت كل عين تدب على هذه الأرض ، اذ رأيتنى أقف عاريا على جسر حديدى يمتد فوق نهر عات ، وكانت أمواج الناس والسيارات تزحف فى جميع الاتجاهات فى نفس الآن ، وموج النهر يزحف تحتنا حاملا فى جوفه قرص الشمس الى مالانهاية ، وكنت تجففت تماما فيما أنظر فى موج النهر فارانى وموجـــات النــاس والسيارات فى قلب النهر ومن فوقنا عشرات الجســـور ومن تحتنا عشرات الطبقات من الأمواج والناس وسيارات تزحف متداخلة وعشرات الآلاف من الســيارات ترتفع مع الموجه ثم تنكفىء بحدة لتغوص حيث لا يبين لها أثر وحيث تنكفىء فوقها عشرات الآلاف غيرها ..

وكنت لحظتها أرى جســـدى ينكفىء هو الآخر تحت سنابك ارتال السيارات والراجلين فلا يبين له أثر ثم يعود فينحاد عن ويظهر من جديد واقفا تحت سهام الشمس فوق الجسر مرتكنا بمرفق على الافريز ملقيا ببصره عميقا فى قلب رؤية لا قاع لها على الاطلاق ان هى الا منظر لمشهد بشع يتكرر بحذافيره تحت وفوق بعضه أعماق لانهائية ..

لكننى اهتززت من الأعماق فى وقفتى حتى أشرفت على السقو فى هاوية القاع الذى بلا نهاية .. شهقت صارخا وتشبثت بحد الافريز وحين فتحت عينى لاهثا تتسارع دقات قلبى رأيتنى جالسا أمسك بعجلة القيادة فى قوة ، وعشرات المئات من آلات التنبيه تز وتعوى كسياط الجلادين تنهال فوق الجسد المنهوك . ولم أكن منتبها

الى شىء قدر انتباهى الى أن عجلة القيادة كانت اطارا من الصقيع الثلجى رغم أن العرق كان يتصبب منى ٠

وكان على أن أزحف بسيارتى ربما بضع أمتار لا أكثر كى يلحق بى من ورائى ، ولكننى ماكدت أبدأ السير حتى كانت المسافة التى تركتها السيارة التى كانت أمامى قد شغلتها سيارات جديدة لا أدرى من أين جاءت ولا كيف فتعين على أن أواصل الوقوف كما كنت وان زحفت مقدار نصف الخطوة ولم تكن الشمس طالعة ، لكنها كانت تحول كتل السحاب الكثيف الى ستائر من الدمور الغامق أو الدبلان أو الســـاتان فى بعض الأحيان ، لكننى لم أكن أعرف كم الساعة الآن ، اذ أننى فى العادة لا أحب حمل الساعات أو لبسها اذ هى مجرد حلية فى بلادنا يعلقها الناس فى المعاصم باعتبارها نقودا متجمدة لوقت عوزة ولماذا أحمل ساعة ؟ ألأقول لسائلى عن الوقت ليضبط ، أن الساعة كذا ونصف ودقيقة وأربع ثوان ؟

بنفس هذه الدقة أزدريها وأمقتها ، لا أرد بعنف عــــدوانى على كل من يسألنى كم الساعة : ممعيش ساعة « ـ كما لو كنت أصفعه بالقلم على وجهه ٠ غير أننى فوجئت اللحظة بأن فى معصمى ساعة تدور كانت تضغط على معصـــمى فتحسستها بيدى اليمنى لأتأكد من وجودها ، وعجبت من أن يوضع فى معصمى شىء لم أحبه ولم أسع اليه مطلقا ، ولست أذكر على التحديد ما اذا كنت قد تلقيتها على سبيل الهدية من أحد أو اشتريتها بحر مالى ، لكن حجمها فى يدى وصوت تكتكتها المألوف المميز أكد الى أنها ربما كانت ساعتى القديمة التى كان أبى قد اشتراها لى بالتقسيط المريح بمناسبة دخولى الجامعة لكى أضبط عليها مواعيد دروسى ومذاكراتى ، غير أننى كان لدى مقياسا آخر للوقت أكثر دقة وانضباطا هو شعورى الدائم القائم بأننى أتعلم على حساب أخوتى وألتحق بالجامعة بجوع أبى

وأمى وأخوتى ، هذا المقياس الخطير الناجع قام بواجبه خير قيام ، فبفضله ما تخليت عن حصة درس أو قصرت فى بلوغ امتحان ٠٠

وهأنذا قد حصلت على البكالريوس وجاء فى مقابل ذلك خمس من اخوتى حرموا من التعليم وحكم عليهم بالهوان طول حياتهم مهما كسبوا ، كانوا جميعا يتضافرون فى الشغل وفى الشـــظف لتوفير نفقات تعليمى فى الجامعة فى العاصمة ، لتربية الأفندى ليصبح من دمهم أفنديا يرتدى البدلة والحذاء ويرطن كذاك الذى كان يسومهم سوء العذاب وعسف الهوان على مدى الأزمان ٠٠ فماذا أفادوا وماذا أفدت ؟ كل ما طرأ على من تغيير أننى كرهت الزمن برمته وبات فى ذهنى معادلا للهوان ٠٠

أغلب الظن أننا لحظتذاك كنا على وشك المغيب ، وكنت أحس بغضب بارد مكتوم أن أنفاسى تحاول البحث لنفسها عن منفذ بين طبقات من الثقل المدعوم بقوى خفية خرافية ، لم يكن يريحنى سوى حالّة اليأس التى لاتنى تتسرب الى دائما كلما اهتاجنى الغضب ٠

نظرت فى الحشود الحديدية الصماء المحدقة بى من كل صوب وكنت لحظتها أسأل نفسى عن السبب المباشر الذى يثير غضبى على التحديد ٠

قلت لنفســـى لعلنى غاضـــب لأن الوقت فيما يبدو قد فات ولن أتمكن من الحاق بموعد الطبيب حيث يتعين على الوصول الى البيت أولا واصطحاب ابنى عائدا به الى عيادة المستوصف ؟

ثم تذكرت أن هذا الموعد كان منذ شهور طويلة مضت وابتسمت فى مرارة ، وعدت فتذكرت أنه كان قد تحدد للكشف على الولد موعد جديد قريب وأن الاشارة الحمراء يومها قد احتجزتنى ومن يومها

وأمه تعيرنى بأننى السبب فى العلة الصحية التى أصيب بها الولد من يومها ٠

ثم زحف فى رأسى خاطر ثقيـــل الوطء مجتاح ، أحســـست فى زحفه أننى لم أر أولادى ولم يرونى منذ وقت بدا لى طويلا جدا كأنه الشهور أو الأعوام ٠ وقلت لعل هذا هو السبب الذى يغضبنى فى جلستى هذه أمام عجلة القيادة داخل سيارتى الواقفة منذ زمن موغل فى القدم لسبب أجهله تماما كما أجهل أى نوع من الأقدار هو ذلك القدر الذى يتحكم فى تسييرنا أو تثبيتنا ٠ ثم اننى نســيت ذلك فجأة وتذكرت أن سبب الغضب ربما يكون احساسا بالجوع داخل السيارة ، لكننى تذكرت أنى ـ حرصا أو عجزا ـ لا أمارس الأكل فى غيبة من الأولاد ، لحظتئذ أحسست بالكآبة حين لم أستطع تذكر آخر مرة أكلت فيها بين الأولاد ٠٠

لا أدرى متى زحفت السيارة ، بل لا أدرى ان كانت قد زحفت أم أن الأرض هى التى زحفت من تحتها ٠ لكننى حين رفعت بصرى فجأة بدوت كالعائد من أصقاع بعيدة كانت أمامى مباشرة احدى عربات الزبالة يجرها حماران ، تكاد تضيع فيها سيارة صــــغيرة كالعنزة تقودها فتاة محجبة وثمة صــــوت عال لواعظ منفعــــل يتصاعد من مكان مجهول لكنه يملأ الدنيا سبابا ونعوتا قبيحة ويرفع لواء الجحيم لكل من يدب على ظهر الأرض ٠

ولم نكن فى شارع انما كنا فى طريق ٠ على اليمين مجموعة هائلة من ناطحات السحاب المزركشة الملعلطة ، المهيأة للانهيار بين لحظة وأخرى ٠ وعلى اليسار كانت الشريحة الأخرى من الطريق ذات الاتجاه العكسى وكانت محتشدة بالعربات هى الأخرى ومتوقفة، ومن بعيد أبنية متخفية فى زى حدائق غامضة مشــــبوهة ، فرغم الصمت المطبق حولها يتصاعد منها ـ فى الخفاء أيضا ـ لغط نشوان

مخربش ، قوى مسيطر وذو نفوذ واضح وحاسم وصفوف سيارتها تحتجز لنفسها نصف شريحة الطريق بكل اطمئنان ، وكثيرا ما يتضح أن السر فى طول كل هذا التوقف والثبات فى السير هو أن أحد رواد هذه الحدائق قد أوقف الزحف ريثما ينتهى من الرجوع خلفا والتقدم أماما وعدل نفسه ـ بكل راحته ـ فى مركن آمن ، أو أن سيارة أحدهم قد توقفت هاهنا أو هاهنا كيفما اتفق ، أو أن فلان الفلانى سوف يمر من هاهنا اليوم فى ساعة صفر فما بالك حين يمر بالفعل أو أن الطريق الفلانى قد اعترضته صفوف العسكر لذب السيارات عنه بأى شكل لسبب غير معلن ولا يسأل عنه أحد ..

كان الراجلون يعبرون من الضفة الى الأخرى فى يسر وسهولة واطمئنان رجال يجرون أطفالا وصبية ، ونساء ويحملن أشياء ، يبدون كالبلهاء المسحوقين خيل الى أننى أعرف هذه المنطقة التى نتوقف الآن فيها وأرجح أن هؤلاء هم سكان العشش والعزب المتاخمة لهذه الضاحية الناطحية التى تم قيامها على الأرض فجأة فحولت كل ماحولها الى عشش بالمسلح ذات منظر كئيب لمحت بين الزحام صبيا مشردا يرتدى بيجامة قذرة ممزقة من عند الصدر والحقوين يحاول ايجاد منفذ لخطواته الواهنة بين السيارات فيمضى شوطا بالطول بين صفين لينزلق من فرجة أوسع بين سيارتين ليرتد عائدا نفس الشوط لينفذ بين أقرب فرجة مناسبة فى الاتجاه العكسى .

أخذ يقترب منى فأخذت أميز فى ملامح وجهه بؤسا عميقا ، كان يبدو كأنه بلا أهل على الاطلاق ، بل هكذا رجحت . لحظتها جاءنى احساس بأن الآوبة الى الدار مسألة فى طى الكتمان لاتزال ان لم تكن شبه اسطورية ، وكان الصبى قد أمعن فى الاقتراب نحوى فقررت فى الحال أن استوقفه وأعطيه كل النقود الفكة التى فى جيبى ورغم اننى بحثت فى جيبى فلم أجد فكة أو متجمدة الا أن صوتى كان قد

سبقنى ونادى الصبى الذى راح يتقدم منى فى حذر وخشية يصدهما عن نفسه بابتسامة شاحبة واهنة كانت عروق رقبته زرقاء بارزة والعناء على صفحة وجهه البرىء الحلو المسمسم الملامح بارز هو الآخر بل كان هو الأبرز ٠

لكأن سكينا انغرست فى موضع القلب اذ فرجئت بشبه كبير جدا فى الملامح بينه وبين ملامح وجه أعرفه معرفة النفس فلما انحنى مقربا وجهه من نافذة السيارة ليكلمنى شممت رائحته وفاض بصرى على ملامحه فاذا هو ابنى بلحمه وشحمه ودمه ٠ عصام ؟

هكذا صحت كالملدوغ واذا به يصيح فى فرح مشوب بالرعب كالمجنون : بابا ٠٠ أنت جيت من الشغل ؟

قلت وأنا أطوق رأسه بيد حانية وأقبله فى شـــــعره المجلد الخشن :

( أنا لسه مارحتش الشغل ياحبيبى ) ٠

فارتاع وجهه وأشرف على البكاء لولا بقية فيه من حياء أعرفه وبدا أنه لم يفهم قولى لكنه قال بذكاء ممروض أننى أسير فى اتجاه العودة الى حيث يقيمون فكيف أزعم أننى ذاهب الى الشغل ما ازال ؟

فأخذت من فرحتى بذكائه وغضبى الموتور أهذى قائلا له ان صفوف السيارات التى أفقدها الزحام والبطء الى حد الثبات رشدها فبات كل هدفها أن تسير أن تتحرك ولو حركة دهماء مدمرة ، هذه الصفوف هى التى اقتادتنى بزحفها العشوائى فى سراديب محددة الى حيث لا أريد، اعادتى حيث كان، يجب أن أذهب وأذهبتنى حيث كان يجب أن أعود فبدا أنه قد وقع فى لغز عميق خطر فقال مقاوما سلطان البكاء :

( كل ليلة أفضل سهران ومتجيش ) مســـحت دموعه بيدى قائلا :

( أنت ايه اللى جابك هنا ؟ ) ٠

قال فى بساطة ( أوصــــتنى أمى أن ألحق بها عند الجمعية الاستهلاكية لأقف بدلا منها فى الطابور ) ٠

وكان يبدو عليه أنه ينتظر منى فعل شــىء ما ، أنــه ينتظر أن أضع يدى فى جيبى وأسحبها بشلن أو بريزة قائلا له :

( خد اصرف ) على الأقل بمناسبة التقائه بى صدفة فى هذا المكان البعيد بعد وحشة طويلة ٠

وكنت أتململ على جمرات ملتهبة بحثا عن شىء أفعله أو كلمة أقولها يصلح أو تصلح بديلا لهذا الفعل العظيم الذى ينتظره ، فلم أجد وفجأة زأرت آلات التنبيه خلفى بغلظة شديدة وانتبهت فاذا السيارات قد زحفت أمامى وبجوارى والولد ابنى يقع فى لخمة شديدة ويسبب لى لخمة أشد ٠٠

ربت على وجهه برفق ورسمت على وجهى أسخف ابتسامة تذوقتها فى حياتى وقلت له ( بعد اذنك ياحبيبى ٠٠ خلى بالك حاجيلك بدرى ) وكانت عصبيتى قد ارتفع أوارها بفعل زعيق آلات التنبيه ونظرات المستنكرين بعدوانية بالغة ، فعشقت عصا الفتيس بسرعة وتركت السيارة تزحف منسلخة برغمها عن جسد ابنى فكأنها تخوض فى لحمى ٠ من المرآة العاكسة رأيته يقف على الرصيف فى انتظار فرجة أوسع بين سيارتين ليندفع جاريا منها الى الضفة الأخرى حيث يوجد بناء الجمعية ٠

ثم اندفعت السيارة تجرى كأنما يقودها شخص سواى ٠ وكان الطريق أمامها قد امتد بخلاء مبهر ومفاجىء ، فى نفس اللحظة كان

الليل قد نصب خيامه اللانهائية فوقنا وليس ثمة من ضوء على الطريق الذى بدا اننى لا أعرفه ولم أتعرف على شىء فيه مطلقا . وكان ضوء سيارتى شاحبا عليلا وكنت استدل بفوانيس السيارات المتقدمة أمامى وأحاول تقريب المسافات بينى وبينها حتى لا أضل أو أقع فى مطب أو حفرة خطيرة .

وكان ذهنى سائرا غير ممسوك بشىء وكذلك لا أعرف الى أين أنا ذاهب على التحديد ، لكننى كنت مفتونا باندفاع السيارة كأننى ولأول مرة فى التاريخ أرانى ممتطيا سيارة تجرى ، كأننى بلذة قصيرة النظر هوجاء أنتقم من طول التوقف والزحف البطىء الممل القاتل وأعوض كل المسافات التى فاتتنى أن أقطعها بلذة .

من حين الى آخر كانت تبدو فى الأفق بارقة ضوء ، أظل أجرى نحوه بأقصى سرعة كأنه الهدف المنشود حتى اذا ما اقتربت منه تجاوزته دون أن أشعر له بأى وجود . طال الاندفاع وطال ثم اذا باشارات ضوئية سريعة متعددة ملحاحة تلاحقنى من الخلف وتنذرنى بتوسيع الطريق لها ووقعت فى لخمة غير متوقعة اهتز لها مقود السيارة فى يدى لكننى نجحت فى الانعطاف يمينا ثم الى أقصى اليمين فاذا بى أرتفع بالسيارة فجأة بعد صدمة عنيفة فى أسفلها عرفت منها أننى اقتحمت الحاجز المرتفع الذى يحدد الطريق المرسوم عن فضاء مطبق مجهول ، والى أن تمكنت من السيطرة على المقود كنت قد تأكدت من وقوعى بالسيارة من حالق فى مطب فسيح ، ارتطمت رأسى بالسقف حتى كادت تخترقه وانطرحت السيارة على جنبها عرجاء عاجزة .

بما تبقى فى من حلاوة الروح فتحت الباب ونزلت انظر حجم الخسائر فوجدت أن الأرض كلها قضبان حديدية بأسلاك شائكة تصل بينها وأننى سقطت بينها فحمد الله على السلامة وتمزق قلبى على

ضياع السيارة وكان الحل الوحيد أمامى هو أن أنام بداخل السيارة حتى يطلع الصباح وحين أغلقت المسوجر ومددت الكرسى عن آخره ثم اضطجعت كنت أستدعى الى الذهن عشرات الليالى السابقة التى نمت فيها فى السيارة وأتذكر الأفكار التى تتوارد على اثناءها وأتآلف مع المخاوف التى يبعثها الليل البهيم والوحدة ثم أننى غفوت قليلا أو هكذا خيل الى .

على اننى فتحت عينى ففوجئت بقرص الشمس يخترق زجاج السيارة تتصاعد منه ألسنة اللهب انتفضت جالسا أتصبب عرقا وماكدت أرفع رأسى وانظر حوالى حتى فوجئت بعشرات المئات من السيارات المختلفة الأنواع والاحجام لكنها تتفق جميعا فى انها هالكة غير صالحة للعمل بعضها معجون فى بعضه تتساقط من بين عجائنة رءوس وأعضاء آدمية لقيت حتفها فى حوادث بشعة أو ربما ضحية لحظة انطلاق كاذبة كالتى مررت بها منذ ساعات . سيارات أخرى لاتزال سليمة بعض الشىء وان كانت غير صالحة للاستعمال لدهشتى رأيت فيها أناسا عجائز أحياء تتدلى لحاهم وشواربهم ويتصاعد منهم عفن أقوى من رائحة الجيف .

حاولت فتح الباب والنزول لكننى لم أقو على الحركة ، ثم تبينت أن ساقى قد كسرتا أثناء الوقوع من حالق دون أن أنتبه كل هذه الساعات ولست أذكر اذا كان الألم قد عادنى اثناء غفوتى داخل السيارة أم لا لكنه الآن يسرى فى كل عروقى ونخاعى يرعدنى يزلزلنى فأتاوه صارخا من فرط الوجع .

بصعوبة فتحت زجاج النافذة وأخرجت رأسى صارخا أنادى رجلا يجلس فى سيارة على مبعدة .

قال بكل هدوء ( علام تصرخ هكذا ياجدع ؟ )

قلت : ( أغثنى أرجوك ) ٠

قال : ( لست أقوى على الحركة ) ٠

قلت : ( هل أنت مصاب مثلى ) ٠

قال : ( كنت سليما ولكن طول المكث هاهنا يبس مفاصلى وجمدها تماما وأقتات على ما بقى على هذه الأرض من نفايات تدلقها اللوريات والعربات الكارو كل بضعة شهور أو أعوام ) ٠

قلت : (فأين نحن الآن ما اسم هذا المكان الذى نحن فيه الآن ؟ ) ٠

قال فى استنكار عجوز دامع : ( فكيف جئت الى هنا اذن ) ٠

قلت باكيا بحرقة ( لم أجىء ولكننى جئت لا أعلم كيف ) ٠

قال العجوز ساخرا : ( ايليا أبو ماضى حضرتك ) ٠

قلت وقد ادهشنى أن يصل هذا الاسم الى هنا : ( أرجوك فالأمر لا يحتمل التريقة ) ٠

قال كأنه يبكت طفلا مشاكسا ( نحن يا أخى فى قرافة السيارات ) ٠

قلت منزعجا : (ولكن العادة جرت الا يلقى فيها غير السيارات الميئوس منها ٠

قال : « أما هذه فقرافة ٠٠ تلقى فيها السيارات بمن فيها بدون لزوم لوجع الدماغ » ٠

أخذت انتحب وألطم خدى ٠

قال العجوز دون أن تهزه حالتى « غدا تتماسك وتعتاد الأمر

.. مثلما قدرت على امتصاص حجمك الى حد التلاشى لتنفذ من بين كتل الحديد وجحافل القضبان .. ومثلما قدرت على انفاق سنى عمرك منتظرا داخل سيارة فى وقفة ممتدة الى ما لانهاية .. ومثلما قدرت على السباحة فى بحور الوحل والمجارى تقدر على أن تتماسك بقية عمرك هاهنا .. ولعلك علمت أن لا شىء هناك يستدعى العواء هكذا » .

أدخلت رأسى واستويت نائما من جديد على الكرسى ، تذكرت من خلل الألم القائم اننى لم يعد لدى مشاوير هامة أقلق بشأنها : وان الولد زمانه قد لحق بأمه فى طابور الجمعية الاســــتهلاكية ، وتذكرت زوجتى عائدة تجره خلفها وتمشى مهانة تحمل على رأسها قدرا من زيت وصابون وملح وشاى ، فأخذت جيوش الألم تهاجمنى من جميع الانحاء وأنا أرسل فى الفضاء صراخى الحيوانى المجنون : وليس ثمة من أصداء تجاوبنى على الاطلاق .

# فــك رقبــة

كنت أجرى فى خلاء موحش ، يتصاعد من جوفى شعور بأن ثمة من يطاردنى غير أننى لم أكن أعرف علام المطاردة أو الام ٠ ؟ وحين نظرت الى الخلاء أمامى وحوالى بدا لى أنه ـ رغم اتساعه الذى بلا حدود ـ ضيق غاية الضيق ، حيث لم أكن لى وجهة معينة على التحديد ، فقللت من اندفاعى ، وهبطت فروة رأسى فأحســـســت كأنها كانت غائبة تماما منذ زمن بعيد ٠ ثم بدا على كأننى أعرف أن ذلك الذى ربما كان يطاردنى يريد أن يظفر منى بشىء ، غير اننى لم أعرف هذا الشىء على وجه التحديد وما كنهه وما قيمته بالنسبة لى أو للآخرين أو حتى للشياطين ، انما أشعر بحقيقة واحدة لا جدال فيها ، هى ذلك الاحساس بالرعب الى درجة لا رحمة فيها ٠

اعترانى الاندفاع من جديد فأطلقت ساقى للريح وثمة شىء كاليقين يطوف تحت فروة رأسى بأننى بعد مسافة قصرت أو طالت سوف أخر على الأرض راكعا أطلب الصفح ربما ، أو الرحمة ـ وكنت واثقا بأن ثمة من سيهتز من ركوعى ولهذا لم أكن قادرا على التمييز بين العرق والدموع فكلاهما ينثال بدفق مزعج مؤلم ولهذا أيضا قلت لنفسى أن العرق ربما كان دموع الجسد وأن الدموع ربما كانت عرق العينين ٠٠

كنت محتاجا الى الركوع فاعتزمت التعجيل به ايقافا للتعب ،

وكنت تعبا مجهدا فخررت راكعا · فما أن لثمت جبهتى وجه الأرض حتى وجدتنى فى قلب حفرة عميقة هائلة وجسدى كله مغمور بنشع عطن · خفت لحظتها أن يكون ذلك من عملى فى ماض لا أذكره الآن ولا أكاد أعرف عنه شيئا أى شىء ·

وكان ثمة رجل معمم يجلس فوق كومة من التراب الطالع من هذه الحفرة ، وكان ظهره لى فيما أحاول تخليص ركبتى المنكسرتين فى قلب عجينة طينية لدنة ، وكنت أريد أن أصيح به منبها اياه لعله يقيلنى ، لكننى حين شرعت أصيح لم أجد صوتى ، وأدركت أن السبب هو اجلال قديم توارثته يمنعنى من الاجتراء على وحدته أو ازعاجه ، وأخذت أحاول رفع نفسى بكل نفس ذائقة الموت ، وفى اللحظة التى خيل الى أن صوتى قد عاد يهدر فى حلقى وأننى أستطيع التأوه على الأقل كانت سحب الصمت قد انجابت فجأة فاذا هذا الرجل يتكلم واذا صوته يجلجل ويداه تهتزان وترسمان فى الفضـــاء أشـكالا وتموجات ايقاعية ، وعرفت أن صوتى لن يصل ، لكننى مع ذلك تأوهت بصوت عال ثم جعرت ثم هتفت ثم هدنى الاعياء من فرط هذا وحده فانكببت على وجهى ساخطا ألعق الطين العطن ، ذلك أن صوت هذا الرجل وصوت الهدير الخاشع المرتد اليه من حناجر خرافية كانا يعلوان على صوتى الذى لا يلبث أن يغوص معى هو الآخر فى الحفرة ، فمن للصارخ فى قلب حفرة بمن يسمعه ؟ ··

هى الرحمة بالتأكيد ، اذ وجدتنى أطفو شيئا فشيئا نحو حافة الحفرة ، وكان من الواضح أن فيضانا مفاجئا قد حل بالحفرة رفعنى بقوة صعوده ، فعرفت أن الحفرة التى وقعت فيها تابعة لخريطة المجارى ، وقلت فليكن ما يكون السـائل لكنه فيضـــان رفعنى من القاع السحيق ·

تشـــبثت يداى بحـــافة الحفـــرة ، أخذت اتســـلق الساتر

الترابى المرتفع ، وكنت ألهث وفى أعماقى رعب لذيذ يوحى لقدمى بفنون من التثبت فوق هشاشة التراب ، وكنت أرتدى أفرول الجندية وأحمل فوق ظهرى جربندية ، ويتعلق فى كتفى مدفع كبير أحسست كأنه صديقى الذى أعرفه من زمن بعيد وقد أبى الا أن يرافقنى فى هذه الرحلة الفاصلة التى سأعود منها ظافرا حتى ولو أكلنى المجهول .

أخذت أواصل الصعود ومن خلفى هدير آخر مختلف تطلقه نفس الحناجر الخرافية التى أحببتها هذه المرة لأنها كانت تشق صمت الفضاء فتضاعف تموجات الصوت من قوتى على الصعود بل كانت تقذفنى الى أعلى قذفا ، وكانت القوة المطلوبة للصعود قد بدأت تزيد عن حاجتى فعرفت أن الأرض قد استوت تحت قدمى ، ولم يكن ثمة من خطر داهم يواجهنى كما كنت أتوقع ، وكنت أنظر عن يمينى وعن يسارى فلا أجد سوى صفوفا متكررة لظلى بنفس الخوذة ونفس الخطوة المحسوبة المنتظمة وقد اعتراها نزق لعله من شدة الفرح باجتياز مانع سرمدى كان معششا فى القلب .

وسرعات ما انبعث أزيز يشق أجواز الفضاء ، فلما نظرت للسماء وجدتها غاصة بأسراب من طير أبابيل تساقط حمما ، فمع مدفعى صوبت عشرات المئات من ظلال المدافع المجاورة لى فاذا بالطائرات الجهنمية تهوى نحو الأرض شيئا فشيئا واذا هى مجرد عصافير ترفرف وتتوقف بكل براءة على فوهات المدافع تلتقط الأنفاس وتنفض الأجنحة مما علق بها من ذعر بائد .

وكنت أحس أننى قد وصلت الى نقطة أمان عظيمة حقا ، لكننى توجست الخطر فيها ، وخفت أن تكون هى مجرد البرهة التى يستغرقها زمن القدر فى الوصول الى ذروة الانفجار الماحق ، فشرعت أنشر سيطرتى على القمة العريضة ، بأن رحت أجوبها مستطلعا

مناقذ الخطر الذى قد يكون · فما أن خطوت خطوات حتى وجدت درجا حجريا عريضا سميكا منحوتا بدقة ومهارة يأخذ فى الهبوط الى أسفل ، أطلقت فى مساره كثيرا من الطلقات النارية ولففت حوله لاطلق من كل ناحية ، فلما استيقنت من غياب الصدى شرعت أهبط الدرج فى حذر واستطلاع ، وكان الخوف قد شرع يعترينى من جديد لسبب غامض فنفيته بقوة ، ولحظتها تكشف لى أن الدرج لم يكن درجا ولم يكن حجريا بل كان أليافا سميكة منحوته لشجرة عظيمة الحجم ، واننى لم أكن أهبط بل كنت أصعد الشجرة ، وكنت لحظتها ألبس الزرد وأواصل الصعود فى مهارة النمر وروح وخفة القط ·

فلما استوت قدماى على أول فرع مونق أخذت أمشى فوقه والفرح يهدهد أعطافى ، ذلك اننى ألقيت بصرى على شبكة الفروع العريضة المونقة فوجدت عشرات من الأبقار السمان الحلوب تقف فوق الفروع تأكل وترسل عيونا فيلسوفة لا تمل من التحديق كما لا تمل أثداؤها المنتفخة من ادرار الحليب ··

تذكرت أن أمى كانت تحلم بواحدة من هذه الأبقار ، وكانت لاتنى توصينى اذا ما لبست الزرد وطلعت هذه الشجرة أن أجىء لها بواحدة · انبثق بداخلى فرح غامر ، ورأيت الخضرة حوالى تعانق الشمس فى قبلة عظيمة حارة من فرط حرارتها تبدو بلا نهاية ·

ولم تكن الأبقار مربوطة وليس عليها ثمة من حرس ، وكنت أحس كأن لى حقا أزليا فيها ، وهاهى ذى احدى الأبقار تومىء لى صائحة بل أكاد أظنها تبتسم لى وتنادينى · اقتربت منها وأخذت أربت عليها بحنان وأفاضل بينها وبين الأخريات فتعجزنى المفاضلة ·

ثم اننى سحبتها ومضيت فمضت ورائى تبتختر وتنقل الخطو على الأفرع المتشابكة فى رشاقة · ثم استطالت الأفرع تحت أقدامنا

ومالبثت ان التحمت بالأرض فيما يشبه المرتفع الذى يكشف وراءه مباشرة عن منحدر • وبدأ صوت خطوات البقرة يقرع الأرض فى خبب واصطكاك ، فلما نظرت الى الأرض وجدت المرتفع مرصــوفا وكذلك المنخفض ، فداخلنى الانزعاج الغامض •

وما أن شرعنا ننحدر فى المنخفض المرصوف حتى شرعنا نتاهب لصعود مرتفع آخر مرصوف أيضا • وكان على قمته زئيط هائل ورؤوس رجال ونساء وأطفال بدوا لى كأنهم غرباء عن هذه المنطقة . والكل يصوت بأنغام مختلفة الايقاعات ، وعجزت البقرة عن مواصلة الصعود فأخذت أصيح فى دفعها دون مجيب •

فكرت فى الارتداد والبحث عن طريق آخر لكننى فوجئت بأن المشكلة نفسها قائمة عند الارتداد لأن البقرة لن تتمكن من صعود المرتفع الذى انحدرنا منه ، المطلوب اذن أن تنجح البقرة فى صعود أحد المنحدرين • كدت أبكى ، الا أن البقرة وسعت ما بين ساقيها فعرفت انها تستعد لافراغ بطنها من الغائط ، لكن مؤخرتها صارت تساقط أطباقا من الصينى وملاعق ما تكاد تصل الى الأرض حتى تتكسر هشيما ، وكان نفس الهشيم يتساقط من قمة الزئيط البشرى فلما تفحصته تبينت أنه هشيم زجاج سيارات فقلت لابد أن الزئيط والتجمع بسبب حادثة بين سيارتين وطلبت الستر من الله •

وبدا أن الرءوس فوق قمة الزئيط قد لمحتنا فصارت تضحك وتشير الينا ثم تأخذ فى الهبوط نحونا كالقردة مما أخافنى ، لكننى لما رأيتهم يتجهون تلقائيا نحو البقرة ويمسكون بمؤخرتها ويساعدونها على الصعود بدفعها بقوة عجيبة عرفت انهم من أهلنا وان كنت لا اعرفهم أو يعرفوننى ••

أخذت أبادلهم حديث المجـــاملة فســـألتهم عن ســـر هذا الزئيط فقالوا لى أن « حميدة » قد ولدت اليوم ولدا •

قلت رغم أنى لا أعرفها : طيبة وغلبانة حمدا لله أن رزقها ولدا ينفعها ألهذا تفرحون ؟ ٠

قالت جوقة الأصـــوات الهمجية اللطيفة : نعم ولهذا نبكى ونصرخ من أجلها أيضا ٠

قلت : كيف ؟ لماذا ؟

قالوا : لأن الحدأة قد اختطفت رأسه ٠

قلت : أى حدأة ؟

قالوا : أى حدأة ، اذ أن حميدة كانت تستعجل قيامه واستقامة عوده فجلست على الطريق فرحة تحاول تدريبه على المشى والنهوض فما درت الا وجســــده بين يديها بلا رأس والدم ينزف من عنقه المبتور ٠

قلت : ياحفيظ يارب ، ثم واصلت الصعود ٠ ثم وقفنا جميعا وسط الزئيط نمسح عرقنا ونلتقط الأنفاس ، والبقرة المســكينة هى الأخرى تتصبب عرقا وتنظر فينا فيتصاعد من عينيها صبر عريق بارد محزون ٠ وكنت مطمئنا الى أن مقودها فى يدى ، فأخذت كالموتور أبحث بلهفة وحيوية غريبتين عن شىء لعله جثة الطفل الذى اختطفت الحدأة رأسه وصيرت الأمل العزيز بين يدى الأم كتلة من اللحم الأعز ٠

وحين تمكنت من الغوص بين كتل الجماهير تكفلت البقرة من ورائى بشق طريق مريح لنا ٠ وكنت أتوقع أن أكون موضع أسئلة كثيرة من الجمهور الذى ساعدنى على صــعود المنحدر وتركنى أغوص فيه ببقرتى ، لكننى حين وجدتهم لا يفعلون بل يصبحون هم موضع أسئلة منى تيقنت من أنهم رهط من بقايا عشـــيرتى وبلدتى البكر الطيبون ، كانوا يمشون فى فروغ بال وثمة شبه كبير جدا بين

حالتهم تلك وبين ما يتصاعد من عينى بقرتى ، اذ تنضح وجوههم بصبر عريق بارد ومحزون وكان منهم من يتطوع بمساعدتى فى سياقة البقرة وذب الأطفال عنها ، وقلت لبعضهم بصبر نافد :

أين حميدة اذن ؟

فأشاحوا عنى بوجوههم كأنهم يتهربون من سؤالى وهم فى نفس الوقت يشيرون لى باشاحة الوجوه نحو مكان بعينه ·

نظرت الى حيث اتجهت وجوههم ، فرأيت جسرا حديثا من الحديد والأسمنت ذا أفريز ودهاليز يمتد فيخترق العمائر ويشطر الأبنية العتيقة الثمينة ويمتطى ظهر النهر ويتلوى ويتلوى وتتفرع منه قنوات وأرجل ورءوس لا حصر لها كحيوان ديناصورى خرافى ، وأسرابا لا حدود لها من السيارات مجهولة البدايات والنهايات تزحف متداخلة متعارضة متقابلة فى نفس الآن ··

انبهرت حقا ، ولكننى حين رأيت كثافة الزحف فوقه أحسست بالخطر الداهم يجتاحنى فجأة · ثم رأيتنى فى الحال أمشى فوق هذا الجسر بين السيارات ساحبا بقرتى · ومع ذلك لم نصطدم بأحد ولم يصطدم بنا أحد ، بل كان يخيل الى اننى أمشى فى تطامن وهدوء لا يزعجنى سوى هبوب الرياح العاصفة الزائرة بأصوات المحركات وهى تنزلق حوالى مسرعة الى الامام مثيرة عواصف الغبار ، وقد عجبت من شىء واحد هو اطمئنان بقرتى الحبيبة التى لم تنزعج ولم يركبها الهياج فتكون الكارثة ·

لكن بدا اننى قد حسدتها ، اذ بها فجأة تتوقف دفعة واحدة وتحرن عن السير وأنا أشـــد المقود حتى تكاد رقبتها تختنق ، مما اضطر السيارات الى التلكؤ والتوقف والزأر المتواصل بالاحتجاج

المهول . وقلت لنفسى لابد أنها فعلت ذلك لحكمة أو لسبب من الأسباب طرا .

من فرط حيرتى وعجـــزى توقفت ناظرا فى الأرض انفخ غيظا وسخطا ، وكانت اطارات السيارات تتحرك أمامى ببطء ، فعلقت بها نظراتى فاذا بى أرى قطعا وفتافيت من اللحم البشرى عالقة بها مسحوقة بين أضلاع الكاوتشوك المتين الجديد ، وبقايا دم متجلط فأحسست بالارتياع ، ومع ذلك لم أستطيع اغماض عينى ، فوقـع بصرى على بقايا أصابع طفل صـــغير محشورة بين أضــــلاع الكاوتشوك ، فصرخت وظللت أصرخ عاليا مشيرا باصبعى نحو الاطارات الزاحفة فى بلادة ولا مبالاة وجبروت . ثم اذا برهط من راكبى السيارات البكوات قد نزلوا من ســـياراتهم وأقبلوا نحوى وســـحبوا بقرتى بقوة ودفعوها دفعا الى الافريز وأوقفوها فوقه واستأنفت السيارات هديرها وزحفها ، ووقفت جوار بقرتى وحيدا .

وان هى الا برهة وجيزة حتى رأيت سيارة كبيرة محملة برجال الشرطة مقبلة نحوى . ثم توقفت وهبط منها سبع رجال غلاظ شداد، تقدم نحوى أحدهم قائلا :

« بتعمل ايه هنا ياخويه .. ايه اللى جابك هنا ؟ » .

قلت له بصدر مضطرب وصوت ينضح بالبكاء « لقد عثرت على جثته وكنت أصيح فى طلبكم منذ برهة لترونها بأنفسكم » .

نظروا الى بعضهم فى تشكك ممزوج بكثير من الهزل وقليل من الجد : « جثة من يا أخانا ؟ »

قلت : « جثة عبد الصمد » .

قال : « عبد الصمد من ؟ »

قلت : « ابن حميدة · الذى قيل أن الحدأة قد اختطفت رأسه ورأيت أنا جسده مسحوقا وموزعا بين اطارات هذه السيارات » ·

قال : « أمعك بطاقة شخصية ؟ » ·

تحسست جيوبى فلم أجد بهاشيئا ، لكننى كنت لا أزال ألبس الزرد ، فقلت له : « هذه هى بطاقتى » وأشرت الى الزرد ·

فمد يده فى صفاقة وربت بها على ظهرى فى حنان مصطنع وهو فى الواقع يدفعنى نحو السيارة بكل غلظة كأنه يدفع لصا ·

فتوقفت محتجا : « من فضلك ·· معى بقرتى ولابد من تأمينها قبل الذهاب معك » ·

نظروا جميعا نحوى فى استغراب شـــديد ثم نظروا حواليهم قائلين : « عن أى بقرة تتكلم يا ·· ثور » ·

صحت قائلا : هاهى » ، وأخذت أهز المقود فى يدى فاذا بيدى فارغة تماما وليس ثمة من بقرة على الاطلاق ، فأخذت استجمع ريقى وشجاعتى ناظرا فى كل اتجاه فلا أجد لها أثرا ، ولم يكن أمامى مفر من الركوب معهم فى الصندوق العلوى الكبير مخفورا ببنادق يتدلى من ورائها أشباه رجال ، ولم تكن البنادق لتخيفنى بالطبع وانا لازلت ألبس الزرد ، لكننى كنت لا أزال أشـعر بالوحدة والعزلة الراعبة ·

وكانت الســـيارة تندفع بســـرعة جنونية مخترقة صـفوف السيارات متسربة من بينها فى حركة حلزونية ماهرة والريح تقلبنى بين البنادق التى انحنت هاماتها من فرط الشـــعور بالخواء · ثم رأيتنى معلقا فى الريح واقفا ممدود الذراعين ورأسى مائلة على كتفى فى استكانة وصبر عريق محزون ، ثم تدفعنى الريح وتدفعنى الى الوراء ليصطدم ظهرى بناطحة سحابة فوق شاطىء النهر واذا بى

ملتصقا تماما على الجدار ، ونظرت فى الأرض السحيقة فرأيتها حفرا حفرا وبركا بركا وخنادق خنادق وأكواما من النفايات يجلس فوقها جمع غفير جدا منكس الرءوس فى خشــوع وثمة من يجلس بينهم متكلما فيهم وهم يصعدون من حناجرهم هديرا يصــعد نحو قدمى المعلقتين كريح سامة باردة ، ولحظتها شعرت بالغثيان فرفعت رأسى قليلا لأرى فى مواجهتى ناطحات سحاب أخرى جدرانها من الزجاج والالمونيوم ، تمتلىء غرفها وشرفاتها بنساء عاريات تماما يمددن الموائد التى تحلقتها كروش ذات وجوه غليظة يبدو عليها الطابع الحيوانى ، واياد أشد غلظة ملوثة بالشــحوم والاحبار والدم الجاف .

ورأيت، الاطباق والصـــوانى حـــافلة بقطع من الشـــواء السمين أدركت أنه من لحم بقرتى بدليل اننى أحسست بأســـنانهم تغوص فى لحمى أنا ، فتذكرت حلم أمى وأخذت أزأر صائحا وجسدى كله يهتز من غضب عارم مفاجىء ، واذا بذراعى منفصـــلان عن الجدار وكذا ظهرى ، واذا بى استشعر الأرض تحت قدمى ، ففرحت جدا وحاولت التعرف على نفسى ، فبدا لى أن اسمى ربما كان عبد الصمد بن حميدة وحاولتأن أعرف منذ متى وقفت هاهنا فبدا لى أنه ربما كان من سنوات بعيدة جدا ، وحاولت أن أعرف لماذا أنا واقف ها هنا فبدا لى اننى انتظر شيئا ربما كان الاتوبيس الذى بدا انه ربما لن يجىء ، والذى ان جاء فليقلنى الى حيث لا يرحب بى أحد ولا يريدنى أحد . لكننى مع ذلك امتـــلأت تحفزا رغم كل العناء ، وشرعت أخطو من جديد فى كل اتجاه صادفنى ، ولم أكن أعرف الى أين أتجه أو ماذا أفعل ، ولكننى كنت مصرا ، وموقنا بأنى لابد أن أسترد بقرتى مهما كانت الأحوال .

# ســرادق الألم

الصوات بجميع ألوانه ودرجاته أمر مألوف جدا فى مساكننا ، بل انه واقع يومى لا ينقطع ليل نهار مثلما لا ينقطع الليل أو النهار · ولربما تزول الدهشة اذا عرف أن مساكننا هذه هى مقابر المجاورين، تلك المدينة الواسعة الكامنة وسط جبل المقطم فى السفح الأيمن لطريق صلاح سالم حيث تطل ـ شامخة ماتزال ـ بقايا ســور القاهرة القديمة والقلعة فى حجرها ، وحيث تتلألأ الاضواء فى ميدان المشهد الحسينى العظيم بمآذنه الشاهقة · أحواش أحواش تفصــل بينها شوارع ومنعطفات وتتوسطها ميادين وزوايا صلاة وقباب أضرحة · جدران تتحلى بالخشب المشغول الكالح والأبواب الحديدية التى لم تتمكن من حراسة شىء · الشواهد الحجرية كغابة من الرءوس تضاعفها ظلالها الملقاة على بعضها وعلى الأرض فى ضوء القمر · الطرب المبنية بالطوب تتجاور كأفيال خرافية محنطة ··

وكان صــوت الفرح يلعلع فى الميكرفونات العالية وينداح فى الأفق المسدود بأضلاع الجبل ومسجد قايتباى ، ويتضاعف حين يصطدم بالحجرات المفتوحة على الأحواش · وكنا نتتبع خطوات صديقنا « بخيت » الطربى الذى هو فى الأصل ـ كما ينطقها بلباقة ـ « موتوريست » ، أى أنه خبير بميكانيكا السيارات وله شهرة فائقة وصيت ذائع لولا أنه سافر الى بلاد العرب فمكث سنوات عاد بعدها

بفلوس طائلة ولكن بلا سمعة على الاطلاق تعينه على طلب الأجور المجزية ، فكان أن أراح نفسه واشـــتغل بمهنة أبيه طربيا ، كان محترما ونشيطا وأمينا ، تستطيع أن تقصده فى ميت مفاجىء لديك وأنت بلا مدفن ، فبكل شهامة يجهز مدفنا مبنيا ويستقبل الجناز كأنه ابن الفقيد ، ولايسأل عن المكافأة أبدا ، بل يتطوع بتقديم الشاى والسجائر فضلا عن الكراسى للمرافقين ، ويعين لك خفيرا ٠

معتوه من يتصور أن حقه يمكن أن يضيع ، هكذا يقول «بخيت» عن أمثاله من فرسان الشجاعة ، ثم يستطرد معلقا أن العمل الشهم هو فى حد ذاته أجر لا ينفد أبدا ، واللحم المدفون تحت هذه الأحواش هو حلقة الوصل بين صديقنا بخيت وبين ذويهم من الاحياء ٠٠

كل الطرق قد توصل الى روما حقا الا الطرق الفاصلة بين المقابر ، لكن صديقنا بخيت كان كالأبرة ونحن الخيط ملضـــوم فى ثقبها ، وهو يلف بنا حول مقابر ليستدير بحذاء ضريح ثم يعرج على حوش ، فان سبقتنا الابرة وتعثرنا بدا صـــديقنا « بخيت » لبعضنا كأنه دخل بقعة لا مسالك لها مطلقا ٠ صوت المغنية الرخيم يرسل موالا بهيجا مجلجلا ويبدو كأنه ينبت من بطن الأرض من بين أقدامنا ومن حولنا ٠ كان صوتها شجيا كأنه البكاء الفطرى الجميل ٠

داخلتنا البهجة حين تذكرنا أن صاحب الفرح الذى جئنا نلبى دعوته ــ وهو صهر صديقنا بخيت ــ قد اكترى فرقة موسيقية فوق مستوى العوالم بدرجات عالية ، ويكفى أن معظمها من الاســـماء اللامعة فى شوارع الفن ودروبه ، فصهر صديقنا له فضلة خيرك ثلاثة مهندسين من صلبه يعملون فى بلاد العرب وقد جاءوا لزفاف شقيقتهم ، حسنية » التى تزف اليوم لابن عمها « بيومى » الطربى وصاحب عربات لنقل البضائع لاتنى على طرقات البلاد سائرة ٠٠

فجأة صرنا الى شارع عمومى تصطف على جانبيه الأحواش المبنية على طراز جهم مهيب ، كل حوش بيت متعدد الحجرات فى كل حجرة مدفن أو أكثر ، لو توقفت أمام أحد الأبواب وقرأت بعض اللافتات الرخام لداخلتك قشعريرة غامضة مصدرها اكتشاف أنه فى هذه الحجرات تستريح جثث رجال ممن قرأت أسماءهم فى كتب المطالعة أو التاريخ أو على لافتات زرقاء فى مداخل شـــوارع مدن الاحياء · فى كل حوش من هذه الأحواش أسر بكاملها وأجيال عديدة مدفونة ، وفى كل منها أسرة من الاحياء تسكنها كانت فى الأصـــل خفيرا طرح على مضى الزمن أفرعا من الابناء والاحفاد اكتسبوا حق البقاء كأمر واقع لا مماراة فيه ، ثمة أسر أخرى من أصحاب الأحواش أنفسهم ضاقت بهم مدن الاحياء وارتفعت أسعار الخلوات فيها فجـــاءوا الى حيث لا ثمن للخلو فالرجل مخلية والحمد لله ، وأقاموا من أحواشهم مدافن ومساكن فى نفس الوقت ·· وخشـــبة النعش تقف بجوار العربة البيجو فى حارة تحت شباك الحوش ، والتليفزيون الملون يرسل تصاوير الفيلم على شواهد المقابر المجاورة فى خلاء ليلة صيفية قمراء ··

ثم ان الفرح بدأ يهل علينا من شارع جانبى عريض · أقواس نصر مصنوعة من اللمبات الكهربائية فى ضفيرة يتشكل فى وسطها ما يشبه التاج الملكى اللمبات الملونة يتشكل منها اسم العريس وسط اسم الجلالة والنبى العربى · ما أن حودنا الى الشارع الجانبى تحفنا الأضواء حتى صرنا فى سرادق ممتد وعريض يغص بالمدعوين فى دوائر تتناقل التحية والمساء الهناء فى صهللة وسبهللة صـاخبين لذيذين ، والمسرح فى نهاية السرادق حافل بالأطايب ، ، أربع اناث كالفهود فى ريع ثيابهن يبعثن العطر والهيـاج فى كل الانحـــاء ، راقصتان ومغنيتان طبال وضارب رق وعواد وعازف أوكورديون وعازف قانون وناياتى وثلاثة من عازفى الكمان ، وخلبوص يجمع النقطة ويردد كالببغاء كل ما ينطق به صاحب « النقطة » ··

توقفنا برهة عند مدخل السرادق وقد بدا الجميع لنا وهم يروحون ويجيئون شاحبين كالمصابين بالانيميا · وكانت الأضواء تنداح شاحبة فى المدى المجاور للسرادق وظلال الشواهد تمتد وتستطيل على الأرض لتلتحق بظلال المحتفلين · رغم جلال الموقف لم يكن ثمة ما يدعو الى الاستنكار بعد أن التحقت أحاسيس الرهبة بأحاسيس البهجة وامتزجت وصار من المستحيل تميزها عن بعضها·

الدخان الأزرق يتصاعد فى سحب كثيفة تضفى على البارزين فوق المسرح غلالة من السحر ، والطبلة العظيمة لاتنى تعبر عن جنون مخترعها وعبقرية احساسه ياحلاوتها والرق يزوقها بدندشته، وأه من ونس القانون ومن صعلكة العود فى شرايين الجسد ، عينى على زفرة الناى ، انتعش تحت اللحاف أيها القلب الموجود بالعشق الأصيل فها هو ذا الاوكورديون يسحبك الى الاجهاش بالحياة ، ثم اصهل ياكمان وانقلنى الى المدى البعيد أسوح فى ربوع الحب والشجن والألم ·· حتى لو كنتم من عازفى الدرجة الثالثة أو العاشرة فان عزفكم فى هذه اللحظة لأجمل عزف ، حتى لو كان هذا النشاط الحيوى المفاجىء لامتاع المحتفلين استدرارا لبذل « النقوط » فهو جميل بل وساحر ··

وكنا قد اكتشفنا أننا صرنا جلوسا فى جمع قريب من خشبة المسرح ورددت اسماؤنا فردا فردا عشرات المرات فى الميكرفون ، مئات التحايا أرسلت الينا وناب عنا غيرنا فى ردها أضعاف أضعاف· صحوة «نقوط»مفاجئة·صار من الواضح أن الجمع يرغب فى المغنية نجمة الحفل ويستفزها ويبعث على شرفها العشرات من هيف القدود ·

تكفل صديقنا « بخيت » بجرها الى وصلة غنائية ساخنة، فصعد الى خشبة المسرح وشبك الورقة أم عشرين فى صدر المغنية ثم

تحزم وطلب الرقص ، فأرقصته الفرقة عشرين أو ثلاثين بلدى ٠ كشف عن راقص ماهر يسيل جسده فى تشـكيلات فطرية تهتز لها الاعطاف وتتراقص الأعناق فى السرادق ، حتى لقد انتصبت المغنية وانجلى صوتها بأغنيات شعبية ذات سحر وعذوبة لا توصف ٠

وفى قمة الصهللة والوجد المشبوب بالموسيقى والرقص والغناء كان ثمة موجات من الصوات الملتاع تقترب لتطغى شيئا فشيئا على صوت الميكرفون والمحتفلين ، ثم اذا بها تقتحم السرادق نفسه : كوكبة من النساء لابسى الأسود حفاة كسرب من الغربان تقتحم مدخل السرادق لتعبره بالعرض ندبا وصواتا بدب الأكف فوق بعضها ؟ ثم يغيب سربهم فى شارع جانبى مواجه حيث يتضح لمن يقوم ويتمعن وجود كراسى مرصوصة ٠ فى الحال كان الطربية المدعوون فى الفرح قد تذكروا أن ثمة ميتا لابد أن يدفن فى هذه الليلة حيث جيء به من سفر بعيد ولا يمكن الانتظار ٠٠

خيمت على الفرح لحظة صمت قصيرة ، أحسسنا خلالها أن الاحاسيس قد انفصلت عن بعضها لتصبح الرهبة فى جانب والبهجة فى جانب ٠ ثم اذا بالفجوة تتسع بينهما اتساعا مخيفا ، لحظتها ظهر موكب الرجال يحملون النعش ليمر من أمام سرادق الفرح فى بطء وتثاقل ٠٠ وكانت الأوتار لاتزال عاجزة عن لم رنينها من الأفق ٠

صاح صديقنا « بخيت » فى جدية وبنفس الشهامة : « سلام للميت ياجدع » ٠ فتردد العازفون برهة لكنه صاح فيهم : « بنقول سلام للميت ياجدع » ٠ فاندفعت الآلات كلها تعزف السلام للميت ٠

رغم أنه نفس السلام الذى تعزفه لأى « نقطة » وبنفس الآلات ونفس الأصابع ، الا أن شحنة من الشجن الحزين الجليل كانت تنبعث من النغم ، ثم ان الموسيقى استأنفت فى الحال تقاسيمها فارشة للموال أرضا من البنفسج • ثم انساب صوت المغنية بالموال ، وكان يبدو ، أن صوتها ينبت من الأرض تحت أقدامنا ومن حولنا : « طبباك ياجرح ماتوا وأنت لسه حى • ياجرح عيب واختشى صفصف عليك الحى» • •فكأن أجيال من طبقات الأرض بمن عليهاومافى باطنها تزعق هذه الآهة الحراقة وتطلق نفس الأنة الموجوعة وتذرف نفس الدمعة فى سرادق الفرح •

# الاحتراق

لم أكن قد رأيت نفسى وأنا أقطعه ، لكننى فجأة وجدته فى يدى . كذلك لم أر دما يسيل منه ولا منى . غير أننى رغم شعور كامن فى أعماقى بفداحة الأمر ـ لم يكن يبدو على أى استياء أو ذعر . أذكر أننى ربما أكون قد اندهشت ، ولعلنى ابتسمت ، فقد كان ظريفا أن يقطع الانسان هذا الشىء الذى هو ـ فيما يقولون ـ متعة الحياة الدنيا ثم يبقيه فى يديه وقتا . على أننى كنت أسلم نفسى للدهش البارد اللذيذ ، وفى الأعماق البعيدة نبوءة باحساس لابد وأنه سيكون لذيذا غاية اللذة باعثا على النشوة أيضا .

لبرهة سريعة تساءلت ان كان من الممكن ـ طبيا ـ اعادة لحمه من جديد . ولكن شيئا معتما بدأ يصعد من الأرض البعيدة وسخنت ماء الحمام فجأة ثم سخنت ثم تحولت الى ماء مغلى ، وحينئذ رميته فى عنق المرحاض وشددت عليه ( السيفون ) . ثم رأيتنى فجأة فى قلب الشارع الكبير ، وكنت لا أزال عاريا والمطر ينهمر بشدة .

التقيت بكثيرين من أصدقائى ومعارفى وزملاء طفولتى فى كل البلاد التى عشت فيها ولم أعرف لماذا هم الآن فى هذا الشارع .. لكن كل واحد منهم كان ماضيا الى شىء ما ومع ذلك يرانى

وينظر الى ويبتسم · كنت أركض عاريا وأقبل على كل منهم مبتسما وأدعوه مغنيا : ( شتا ياشتا ·· زمر ياسعيد ) ·

لكن أحدا لم يتوقف ولم تفارقه ضحكته الودودة · كنت لا أعرف الى أين أنا ذاهب بالضبط ، كذلك لم أكن فرحا بهذا الركض ولا بالغناء الذى رحت أصـــيح به فى صوت عال غير أننى كنت أشيح عن كل من لم يتوقف ، وأنسلخ عنه · كانوا يحمون وجوههم من المطر بالأيدى والجرائد وجدران المنازل ، ويرفعون أذيال ثيابهم ويتعثرون ثم اشتد هطول المطر فتوقفوا جميعا وانزووا فيما أخذت أقطع الشارع ذهابا وعودة · وقد راحوا جميعا ينظرون الى ولكن بشىء من الحسد · ولحظتها كنت أحـــاول منع نفسى من البكاء الجارف · لكننى رحت أضحك بصوت عال ، حتى لا أعترف بأن مياه المطر هى الأخرى كانت تغلى · وكنت أعجب : كيف لم يحترق جسدى ؟ ·

# العبور من البرزخ الهوائى

القرية التى كنت راحلا عنها كانت تبدو كأنها قريتى وكانت تبدو كأنها لم تكن قريتى ، كذلك كانت المدينة المتاخمة لها ٠٠ وكان آخر مشهد بقى فى ذاكرتى هو مشهد أبى يوبخنى بكلمات جارحة لم تترك عضوا فى جسدى الا واتهمته بشىء بذىء ، وكان ذلك يتم بصـــوت عال وعلى ملأ من الجيران والزملاء والسابلة ٠ وكنت لحظتهـــا قد بدأت أطأ أرض المــدينة مع وفود الندى ٠ وكنت قد استنفدت كل عرقى لحظة التوبيخ فصرت أشرب عرق الليل المنسحب بعد رحلة أجهدته وأورثته من صنوف العهر والعناء ما شبيه بفجر رغم الكآبة ساطع وقوى ونافذ كالقدر كالحكم العدل ٠

أضواء المدينة التى كانت مبهرة منذ ساعات قليلة بدت أمام وفود الفجر الفيروزية كعين عمشاء تخبو ذبالتها شيئا فشيئا ، أبنيتها الميتة المسلحة وعمائرها ذات الشـــرفات والقباب والمآذن والمداخن تبدو كأنها من فرط بروزاتها وتكوراتها البنائية كأنها تكتظ بالرقاد اللذيذ والمتعة المفرخة ، وتبدو كأنها تتنفس بعمق كأنها البطون تعلو وتهبط ، والطرقات المرصوفة تهل وتتفرع وتتنابذ وتتماســـك لتزور عن بعضها من جديد كل فى طريق ، وبعض الطرقات حافلة بالأتربة وبقايا أدخنة اليوم الفائت ٠

وكانت تبدو كأننى أعرفها وتبدو كأننى لم أكن قد عرفتها من قبل أبدا ، ذلك اننى لم أكن أعرف لى وجهة معينة ، وليس ثمة من أحد أعرفه على الاطلاق · ثم اننى وجدت أن لا مفر من التسليم باننى لست من أهل هذه المدينة وليس لى ثمة من أهل فيها ، وكان ذلك يقتضينى أن أمشى مؤدبا غاية الأدب وفى حذر وعلى استحياء أثقل خطواتى أو أرسل البصر ·· وكانت الوفود الفيروزية التى لاينى الفجر يرسلها قد راحت تتعثر فى شوارع المدينة وحواريها ومنحنياتها وتضيع تحت ظلال تندات المحلات وفى أركان الشرفات ، وتتلوث بالوحل على بلاطات عريضة متشققة سائبة يتحدر من بينها ماء قذر يحمل عطانة يستعذبها الأنف اكراما لخاطر ما كان وراءها من مواقعات فى مواقع دفء أسرى لذيذ ·

لا أدرى كم حارة قطعت وكم حودادية حودت وكم مزلقانا عبرت ومصاصات القصب وبقايا عيدانه تتناثر على الأرض ، وعشش وأخصاص تنتمى الى أركان ومنعطفات وعربات الهريسة والبليلة والسندوتشات تزحف داخل عيون الصبح لتحتويها ، وناس تمشى ، عمال وأفندية وتلاميذ ، وأطفال أنقاء يهرولون فى أيدى آبائهم أو أمهاتهم فى زهو كأنهم ذاهبون لتسلم منصب الرئاسة وان وصلوا اليه بعد أربعين عاما أو قليل أو كثير ·

ثم فوجئت اننى فى خلاء قليل تحوطه المبانى من ثلاث جهات · فخيل الى أننى أعرف هذه الفتحة الهوائية المرتسمة بين ضفتين من المبانى العالية على شكل صندوق آلة الكمنجة · وكنت أعرف أننى كلما دخلت فى فراغ هذا الصندوق أكون قد اقتربت من حارة على اليمين فى الضفة اليمنى ، على ناصيتها مطعم فول وجزمجى وفى المقابلة على الناصية الأخرى حلاق · فان دخلت الحارة تعين على أن أهز رأسى للحلاق الجالس دوما أمام دكانه ، وارمى يدى بالتحية لبائع الفول مع ابتسامة أتملقه بها مقدما حتى لا يصدنى بغلظة حينما

يجيء الوقت وأطلب منه فولا وطعمية على الحساب ريثما يجيئني المصروف من البلد ، ثم أتجاوز الجزمجي الا اذا كان رافعا رأسه ..

ثم أمشي في هذه الحارة متوغلا ما يربو على نصف كيلومتر بين صفين متقابلين من البيوت العتيقة لها شبابيك غائصة في الأرض وشـــرفات كالدمامل البارزة في الحوائط الكالحة المخللة في مياه الطرشي ومياه الحموم والغسيل والرطوبة ، حتى أصل الى بيت أم عزت ، وهو بيت من دورين له باب على الشارع مغلق ليل نهار ، وعلى أن أقف تحت الشباك وأنادي بصوت ريفي أحاول جاهدا أن أرققه ليبدو كصوت ابناء المدن :

« يا .. عزت .. ياسي عزت » .

فيرد صوت أم عزت من وراء الباب مباشرة حيث انها تفرش وتنام في الفسحة لسبب لا ندريه ، ومع انها تكون قد عرفتني من صوتي الا أنها تقول بجدية شديدة وذعر عاهر مصطنع :

« مين اللي بينادي ؟ »

فأقول « أنا فلان » .

فيصطك ترباس الباب من الداخل ثم تنفتح الضلفة قليلا لامرق منها الى الداخل ، حيث الحجرة المواجهة لبئر السلم التي نؤجرها أنا واثنان من بلدياتي من زملائي في المدرسة ، اندفع داخلا متجنبا النظر اليها خوفا من أن تكون في نصف ثيابها أو لعله خوفي من بطشها ، اذا أنا تطاولت بـ نظرتي ، ولي بعد ذلك أن أعريها من كل ثيابها في حجرتي وحدي وربما مع زملائي ولكن دون أن تدري هي ، ونتناقل حضنها في الصقيع كل ليلة فيما هي لاتزال تكح وتتوجع في الفسحة ، باستثناء ليال قليلة تنام فيها في الحجرة العلوية المواجهة للباب حين يجيء زوجها عسكري البوليس ليقضي معها أجازة ،

وكنا نرهب جانبها ونهتز من شخطتها حين تضع يدها فى خصرها الرفيع الرشيق فيزداد عجيزتها بروزا وعرضا ، وتؤنبنا كأننا خدم فى معيتها حيث يتراقص حاجبها فى دربة كبيرة ، وحيث نرى التهتك والعهر فى كل عضلة وصوت وحركة ٠

وكان ذلك يطيب لنا فى الواقع اذ هو أباح لنا رؤية اثداء بارزة تهتز طليقة كفردتى الحمام من فوق عش الصدر ، وخصر مستطيل رفيع يزداد رفعا كلما هبط الى العجيزة ، ليبرز تحت الصدر بمسافة طويلة مشروع عجيزة أخرى كأنها مجرد ظل لغطاء حلة مقلوب تبرز منه دائرة صغير يمسك منها ٠

لكنها فى النهاية انتهكت حرمة أمهاتنا تماما ، وصرنا نرتعد كلما واجهنا أمهاتنا ونرتبك كأننا أخطأنا فى حقهن الى درجة الكفر والعياذ بالله ، وكل منا يلاحظ هذه الظاهرة على الآخر كأنه براء منها وهو فى الواقع غائص فيها ٠ وكنا نمتثل لأوامرها عن طيب خاطر ، ويشكو بعضنا البعض اليها لتنزل به العقاب الذى ربما أمتد الى حرمانه من زوادته طوال المدة والاستيلاء على أى قرش يظهر بين يديه ٠ وكان الواحد منا يهدد فى المساء تحت الفراش بأنه سوف ينتقم منها شر انتقام ولكن شبح زوجها عسكرى البوليس يرعبه ، وشبح ابنها عزت ـ ذلك الذى لم نره أبدا ـ يرعبه أكثر ٠

وكنت قد غصـــت فى صندوق الكمان الهوائى حتى دخلت المنبعج النهائى وكان على اما أن أحود بعد خطوات الى الحارة التى صار من المؤكد أنها هى التى كنت أسكن فيها فى هذه المدينة زمن التعليم ، أو أغوص أكثر فى قعر صندوق الكمان الهوائى حتى أصير داخل البروز النهائى فيه لاصير بعده فى خلاء لا نهائى تحفه الأراضى التى يحمل السحاب كثافة ظلها فى السماء الرمادية المخيفة تنطبق

فى الأفق فى آخر المدى على المجهول الذى تبدأ منه آماد جـــديدة لانهائية أيضا ٠

كان الحنين يســـمرنى فى مكانى وكأنما الاشــعاع الذى يصـــدر عن جســدى قد تعرف على نفسه تحت ركام اشــعاعات الآخرين والأزمنة ثم سرعان ما اتصل وتلاحم ، والا فما سر هذه القوة الجاذبة التى تشدنى الآن بعد انقطاع موغل فى القدم الى أن أسير نفس الخطوات فى نفس الحارة لاذهب الى نفس البيت وأطرقه نفس الطرقة وأتلقى رد أم عزت أو أى أم غيرها ٠

ثم ان قلبى ارتعد قليلا ، اذ مر اثنان من الصعايدة المعممين يمشون فى مهابة ويتكلمون فى هدير غير مفهوم ، خيـــل الى أنهم سيتعرفون على ولكنهما تجاوزانى بعد نظرة حافلة بالسلام عليكم ٠ وقد تيقنت أن أحدهما هو صاحب المبنى الذى كانت تؤجره مدرستنا اسمه المعلم عباس المراكبى والآخر هو صاحب محل عصير،كنتأريد أن أسلم على المعلم عباس وأن أهرب من صــاحب محل العصير ، فالأول كان قد حاش عنى أولاد المدينة حينما تحوطونى مرة بلا سبب وأشبعونى ضربا وزغدا وتهزيئا والثانى اســتلفت منه بريزة منذ عشرين عاما وزعمت له اننى سأردها يوم السبت حين عودتى من البلد ولكنه لم يرنى بعدها أبدا ٠٠

تذكرت اننى ربما أكون مدينا لصاحب المطعم هو الآخر بأكلتين أو ثلاث لا أذكر ، ثم اننى توجست من طول الوقوف ، فمضـــيت متجاوزا الحارة على زعم خنى بأننى لن ابتعد عنها كثيرا لاعود اليها ، فاذا بى أرانى ماشيا فى الخلاء المتاخم للمدرســـة مرتديا بنطلونى وقميصى وبين رهط من التلاميذ نسعى الى مدخل المدرسة نوحوح من البرد ، وكلهم ينظرون الى ، حتى الذين يمشون خطوات دون انتباه لى يعودون فيلوون أعنـــاقهم ناظرين الى من جــديد ، فأعرف أنهم يستنكرون بنطلونى المرقع ، ويتأففون من حذائى المفتوح

الفم عن لحم عار بلا شراب . وكنت أعرف هذا وأركز النظر فى عيونهم متحديا فمنهم من ينكسف ويمشى خجلا ومنهم من يصطنع الاشفاق ليمعن فى الكيد ، ثم رأيتنى فى الفصل بين خمسة صفوف من التلاميذ والمدرس واقف ينصت فى امعان وأنا أقرأ فى كتاب المطالعة موضوعا عن دار الكتب المصرية التى أنشأها على مبارك باشا ليحفظ فيها تراث العــرب ، وكان المدرس معجبــا بقراءتى وأنا منطلق فى القراءة رغم أن شياطينا من الزملاء المجاورين يمدون أيديهم خلسة ويتحسسون بها مواضع الرقع فى بنطلونى ، فيرتعش جسدى كله وينتفض ، وما ان جلست حتى جمعت كل قوتى الغاضبة فى لكمة شيعتها خلسة للشيطان الذى أعرفه فاذا به ينتفض مذعورا صارخا واذا بالفصل كله يفزع منبها والمدرس يقبل نحوى رافعا حاجبيه ينظر الى دهشا كأنه ينظر الى وحش متنكر ، سألنى فحكيت له السبب .

وقال الولد الذى لكمته بقسوة انه لم يكن صاحب اليد التى تحسست ، انما هى يد فلان ، فابتسم المدرس وأمرنى أن أعتذر لجارى فاعتذرت ، وميل المدرس رأسه نحوى هامسا :

« وانت كمان ابقى غير البنطلون ده » ..

وكنت ارتدى نفس البنطلون ونفس الحــــذاء حينمــا رأيتنى اتجاوز بناء المدرسة وأنسلخ من أرض الحديقة الملحقة بها وأعرف اننى قد خرجت من صندوق الكمان الهوائى وصرت أمشى على مدق رفيع بين مزارع وقنوات وسواق ، وأسراب من طيور أبى قردان صديقة الفلاح ، لابد أنها هى الأخرى تظننى حشرة من حشــرات الأرض يجب ابتلاعها لولا حجمى ، اذ راحت تصافح الأرض أسرابا لتعود فتنطلق منها أفرادا وجماعات تصنع فى الفضاء تشكيلات أين منها التشكيلات العسكرية ، وكنت أتأبط شيئا سرعان ما تبينت انه صرة فيها ثيابى الداخلية والخارجية أى كل ما أملك من ثياب .

وسرعان ما تبينت أننى ذاهب لكى أغسلها حيث أفعل ذلك يوم كل جمعة فى الخفاء ٠

ظللت أمشى وأمشى وأعبر قنوات حتى تعبت ٠ ولما نظرت خلفى ورأيت المدينة قد ابتعدت وصندوق الكمان الهوائى قد انعجن فى كثافة من خلال المبانى ، اسـرحت بعض الشىء واعتبرتنى فى مأمن ٠ وكان أمامى ساقية كبيرة فوق ربوة عالية ، تستظل بثلاث فارهات من شجر التوت والجميز والجزورين ٠ وكانت الشمس قد ألقت بقرصها كاملا فوق سطح شريط بارز مصقول عرفت أنه ترعة كبيرة أغلب الظن أنها ترعة المحمودية ، كالعادة وضعت صرة ثيابى فى حوض الساقية الاسمنتى المستطيل ، ثم خلعت ما على من ثياب ، ثم فردتها كلها وشرعت أغسـلها ٠ اكتشـفت كالعادة أن ليس معى صابونة ولكن ذلك لم يثننى ، صرت أغمس الثوب فى بئر الساقية وأخرجه ثم أضعه على رأس الحوض وأروح أدعكه بين راحتى كما تفعل السيدات ، وأتذكر منظر أمى وهى تلم الثوب على الأرض فى كومة هرمية وتضغط فوقه بايقاع موسيقى ، ثم تفرده وتغمسه فى الماء هكذا ، لتفرك هكذا وتكوم وتضغط هكذا والثوب يفرز موجات من الوسخ ذى رائحة عطنة ٠ المهمة ثقيلة مع ذلك لا يكرهنى فيها سوى غسل السراويل مع انها سراويلى وهذه البقعة المتجلدة فى صدر السروال ذات لون لا لون له هى افرازاتى مع ذلك اتقزز من غسلها ومع ذلك أغسلها ٠

وكنت ماضيا فى غسل أحد السراويل مكشرا وجهى أضغط باسنانى على لسانى مثلما أضغط على السروال وأحكه فى أرض الحوض حين زحفت على الثوب مجموعة ظلال كثيفة تتمثل فى رؤوس سوداء متجاورة صارت تدوس فوق الثوب وتستطيل وتستطيل ، أحسـست انها لناس ربما كانوا من أصحاب هذه الأرض أو هذه الساقية أو ليسوا أصحاب شىء ، فتعمدت عدم الالتفات وطفقت

أواصل الغسل واثقا أنهم لابد سيعتبرون ويختشون ويمشون • لكن صوتا ثقب اذنى عرفت أن صاحبه هو ذلك الولد الشيطان الذى دأب على تهزيئى بسبب رقعة فى بنطلونى وكان يخيل الى أن الضحكات الساخرة المستهجنة تخرج من كل مكان وتبقلل فى مياه البئر ولكننى مع ذلك لم انتبه •

وظللت أواصل الغسل وهم يواصلون الضحك الساخر والتجوال حول الساقية • وكنت كلما انتهيت من غسل قطعة نشرتها على شعبة الساقية وعلى الطارة الحديدية ، فلما انهيت غسل الثياب كلها نهضت مارا بالأولاد الشياطين ووقفت ونظرتى فى نظرتهم فلم يبد على اننى رأيت أحدا ، ثم قفزت الطريق قفزة واحدة الى الترعة ، التى بدت عريضة أكثر مما توقعت عميقة أكثر مما ظننت ابن ريف أنا مدرب على خوض الترع كما هو مدرب على الخوف منها •

نزلت متحسسا أرض الشاطىء وانحداراته الى الداخل . ثم غطست غطسة سريعة وخرجت على مبعدة أمتار قليلة ، ثم أخذت أسبح وأسبح بدربة هائلة نشوانة مع اننى لا أذكر أنى تعلمت السباحة فى حياتى وان خضت الترع والمصارف • وكان يزيدنى نشوة أن الشمس صارت عمودية فوق ثيابى •

# الكهـــف

رأيتنى جالسا كالعادة فى حجرة مكتبى منشغلا فى أمر لا أدرى ما هو على وجه التحديد ، لكننى كنت أقلب أوراقا مطبوعة أغلب الظن أنها بعض المجلات الأسبوعية أو الجرائد الملونة ، وكان ثمة شعور بأن التفاهة والقرف يحاصراننى حصارا لا فكاك منه ٠

وكان باب الحجرة مفتوحا على غير العادة والليل ـ كما كان واضحا ـ ينذر بفجر كئيب كفجر كل الأيام السالفة ٠ وفجأة رأيتها مقبلة من احـدى الغـرف الداخلية مجتـازة الصالة فى اتجاه باب الشقة ٠ كانت ترتدى جلبابا منزليا يشبه جلباب الرجال الى حد كبير ، لكنه ينسدل فوق مرتفعات جسدها بسخاء فتبدوا أجمل مما عرفت ، ويلتحق بمنخفضاته فيبدو كجاسوس خبيث ٠

لم أكن أعرف لماذا هى متجهة الى باب الشقة فى مثل هذه اللحظة المتأخرة من الليل ، ولم أكن سمعت طرقا على الباب ، لكنها ـ كالعادة ـ تممت على ترباس الباب ودفعته ثانية بقوة حتى تأكدت من اصطكاك لسان المزلاج بالثقب الذى يبيت فيه وأطفأت المصباح المعلق على واجهة الباب من الخارج ٠٠ ثم استدارت عائدة نحو

حجرة مكتبى فتهيأت لاستقبالها بابتسامة أحاول جاهدا أن تبدو طبيعية حتى لا أتهم باننى افتعل الابتسام كلما انفردت بى لأخفى عدم سرورى ، باقتحامها عزلتى · وكانت متهندمة يفوح منها طيب وكانت أيضا تبتسم ، فكاد قلبى ينخلع ، اذ تأكدت انها لابد ستحدثنى عن أشياء خطيرة مطلوبة منى تتعلق برهط من كائنات صغيرة تنام فى الحجرة المجاورة لا يهدأ لها ضجيج حتى فى عز نومها ·

ولم أكن قد قررت بعد ماذا سأقول محاولا قدر الامكان تجنب الردود التقليدية التى أصبحت أخشى ترديدها كما أخشى الاقتراب من لغم·وكان جسدها كله قدصار فى مواجهتى‌تماما مقبلا نحوى،ولم يكن ثمة شك فى أنها هى بلحمها ودمها ، لكنها كلما اقتربت اختفى وجهها فى ظلمة الصالة الخفيفة وجعل يتصاعد من جسدها تيار كهربى غير مرئى بعث الخوف والفزع فى جسدى كله · فلما ازداد إقترابها ازداد معه اختفاء نصفها الأعلى كله صاعدا نحو السقف فى حين لم تستطع حنية زاوية الباب أن توقف زحفها نحوى فى هدوء رقيق ونعومة ·

ارتفعت فروة رأسى ، غصت فى كرسى المكتب وشرعت من فزع ومن رعب أطلق صراخا من الحلق يشبه الزئير ، زئير من يستنجد بقوى كونية خرافية تسعفه · لحظتها شعرت بجسدى كله يهتز . ويد ناعمة تربت على كتفى وصوت يردد فيما يشبه المواء فى أذنى :

« مالك يافلان ·· أنا نايمة جنبك أهه فيه ايه ؟ » ·

رفعت رأسى عن الوسادة قليلا والتقطت أنفاسى الضائعة بصعوبة ، ثم تمطعت واعتدلت فى نومتى محاولا الغطاس فى بحر النوم ، لكن أنفاسى لا تريد أن تنتظم · بربشت بعينى فى الظلام فلم أر

شيئا لكننى أحسستها ، فتذكرت أنها كانت قد جاءت منذ وقت ونامت جوارى · فظلت جفونى متباعدة كأنما اعتراها الخوف من الانغلاق، وبدا أن النوم الثقيل عدو سخيف يحاول استدراجى الى المجهول ·

وكانت يدها قد راحت تتحسس جسدى كأنها ترقينى بلا رقيا · وكنت ــ على سبيل رد المجاملة ــ قد تركت يدى هى الأخرى تفعل نفس الصنيع · ثم وجدتنى استجيب شيئا فشيئا ·· فأدخل كهفها المسحور ·

# فنتازيا الأطفال

لأمر ما دخل التليفزيون دارنا دون كل الدور فى العزبة التى أسكن بها ، ذلك أن ابنى الأكبر ، وهو مدرس معار الى بلد عربى ، كافأنا بهذا الجهاز لنتفرج عليه ريثما يعود من رحـــلته ويتزوج ويستعيده لنفسه ٠

والعزبة التى أسكن بها ليست عزبة بالمعنى المفهوم للعزبة ، انما هى منشأة صغيرة كانت فى الأصل مسكنا لعمال وخفراء احدى ماكينات المياه ، قبل أن يفد عليها ألوان من الناس لأسباب مختلفة ويتخذون منها موطنا ، فبينها وبين العاصمة بضعة أميال صغيرة كنا نقطعها سيرا على الأقدام كل يوم لنقضى سهرتنا أو نشترى حوائجنا ، الا أن العربات المنتشرة على السكك ، وزحف العمارات القادم من العاصمة ، والضجيج الهائل الذى أصبح يعم المنطقة ، كل ذلك جعلنا نفكر عشرات المرات قبل « السفر » الى العاصمة اذا لم يكن ثمة عربة توصلنا ٠

فجأة صارت « المندرة » فى دارنا أشبه بالمقهى ٠ لم يكن ذلك يزعجنا ، بل كنا أحيانا نتطوع بتقديم كوب من الشاى أو أكثر لبعض كبار القوم الذين دأبوا على زيارتنا للتفرج على فيلم السهرة أو تمثيلية الثامنة والربع ٠ على أن أكثر ما كان يسعدنا جميعا هو

منظر الأطفال الملتفين حول الجهاز ينظرون فى انبهار وصـــمت عميقين ، خاصة حين الفرجة على برنامج ( الاطفال ) ٠

كنت أرقبهم وطفلى الصغير بينهم يتبادلون النظر والابتسام فى غبطة وسرور كلما جاء مشهد الحديقة على الشاشة ، اذ تنفتح الشاشة فجأة على حديقة جميلة حافلة بالاشجار والاراجيح وآلات اللعب ، وكوكبة من الأطفال الملظلظين تتقافز ضاحكة لاعبة وتتبادل الورود والزهور ٠

كانوا يحسبون لموعد البرنامج بكل دقة ويطرقون علينا الباب دون حرج ٠ وفى يوم تعطل الجهاز وصار حتما أن أقوم باصلاحه قبل حلول موعد برنامج الأطفال ، أى لابد من الذهاب الى العاصمة ٠ وهنا تعلق طفلى بثيابى وارتفع صـــراخه ، فاصطحبته معى الى العاصـمة ٠ سلمنا الجهاز لمحل التصـــليح وانطلقنا الى احدى الضواحى نزور أحد أقاربنا الذى أملنا فى عودته معنا حتى يختشى منه صاحب المحل فلا يغشنا ٠

فاذا بنا فى سفر جديد ، واذا بنا نهبط ونسير فى شوارع لامعة وهادئة تحف بها الأشجار من كل ناحية فتختفى فى ظلالها البيوت ٠ وكان طفلى ممسكا بثيابى يتلكأ فى السير حينما لمحنا على البعد القريب حديقة جميلة حول سراية أجمل ، حافلة بالاشجار والاراجيح وآلات اللعب ، وكوكبة من الأطفال الملظلظين تتقافز ضاحكة لاعبة وتتبادل الورود والزهور ٠٠

حينئذ شدنى طفلى من ثوبى صائحا بكل انبهار وغبطة ٠٠

ـ « الاطفال » أهم يا بابا ٠

# تبــاريح الــريح

كنت أنام فى حجرة جدرانها من الصفيح وسقفها من البوص والحصير هى حجرتى التى أسكنها فوق سطح بيت « أم عواطف » الكائن فى صدر حارة ضيقة من حوارى حى محرم بك بالاسكندرية ·· متمددا كنت على شريحة حشية فوق حصير متآكل هى مرتبة الكنبة البلدى التى استغنت عنها أمى وتركت الكنبة عارية فى مندرتنا فى البلد قائلة أن عرى الكنبة أفضل من عرى ولدها ثم ضـــحكت لتدارى فى عينيها شيئا ما · بطانية رثة من بطاطين الجيش منطرحة على جسدى تلففه من أخمص القدمين حتى رموش العينين اشتراها أبى من سوق العصر وجاء بها سعيدا يتعثر فى الطريق من الفرح يفردها يقلبها يتحسسها يرينى كيف أنها لاتزال محتفظة بوبرتها تفوح منها رائحة جدة صوفها ·

فى عينى جمرة حمراء صغيرة كحلمة ثدى متكور فى جســـد الظلام هى ذبالة ما تبقى من شريط لمبة الغاز نمرة خمسة بعد أن احترق فى رحلة الصعود بالضوء بلا غاز يجرى فى عروقه الشرقانة ·

تحت رأسى وسادة صفت من كتب دراستى · الحائط أخذ يزداد اقترابا من عينى شيئا فشيئا كأنما قد صار له كرش من الظلام

المتورم أو التورم المظلم · حلمة الثدى المتجمرة أخذت فى الاضمحلال انطمست ، بدا كأنما اختفاؤها مؤقت ·

كنت أتنفس باعياء ، لأنفاسى صوت عال كئيب ، مزعج ورتيب ·· بدا كأننى جائع لم أتناول طعاما منذ وقت طويل مضى · كنت أعرف أننى لو مددت يدى بجوار رأسى مباشرة فسوف تصطدم بالقفة المملوءة بشقائق الأرغفة الناشفة هى زوادتى التى أجىء بها من بلدتى كل شهر مرتين ، نصف كيلة من العيش المخبوز وخمسة وعشرين قرشا مصروف يد ، سرعان ما تغتالها المدينة فى لمح البصر والأيام لما تجىء بعد والليالى ماتزال طوالا ·

كنت أعرف أننى أستطيع مد يدى فى القفة وسحب شقة عيش ألوكها وورقة الملح المدخر من قراطيس الطعمية المشـــتراة لاتزال طافحة بزيتها ورائحتها موضوعة بين كتابين تحت رأسى ·

أعرف أننى قانع بالمثل الشعبى الذى يزودنى به أبى كلما ودعته ساعة السفر : « ان حضر العيش يبقى الملح دلع » · غير أننى ـ ربما من سأم ـ لم أشأ مد يدى الى القفة · نفذ البرد الى عظامى غير مرتهب من بطانية الجيش ولا من وبرها المعظم ·

رحت أرتعش وأتثاءب اعتدلت على جنبى الأيمن انطرحت يدى عفوا على حافة القفة فكرت جديا فى أن أسرب أصابعى خلل الخبز الملامس لها غير أننى ـ ربما من تعب ـ لم أفعل · طويت ساقى تقرفصت تفاديت لسع البرد قليلا · حلمة الثدى المتجمرة ســـاكنة تحت عينى لا تريم · أعرف أن الدنيا فى الخلاء مكفنة بالضـــباب الأسود الكثيف · أخذ صوت الريح يطغى على صوت أنفاسى ·

أخذت الريح تهبد رءوسها العاتية فى بابى وشباكى ، زعزعتها

برعد عنيف شرس كأن أيد قوية تمسك بنا جميعا فى قبضتها تلقمنا فم الريح ٠ الجدران صفائح زيت قديمة انفردت ثم دقت رقاعها فى بعضها البعض ، من أربع صفائح مفرودة على مربع خشبى يتكون الحائط ، ومن ثلاث بالطول يتكون الباب ، ومن ضلع صفيحة يتكون الشباك ٠ صفائح الجدران راحت تترجم خوفها على نفسها من ألم التفتت بصياح وزئير ونقرزان وطنين ٠

بدا كأن الريح نفسها تترجم هى الأخرى خوفها من كوارث كونية محيقة بها ، خيل الى أن الخوف أشد شراسة وتدميرا من أية قوة أخرى مدمرة ٠ فى قلب معزوفة الأصوات الشرسة الشـــريرة الخائفة انشق بجوار قدمى صـــوت كطلقة الرصاص نفضـــنى من الأعماق نفضا ، فلما استعاد قلبى توازن دقاته تبينت رغم الظلام أن المصباح قد وقع من المسمار الذى كان معلقا فيه فصـــار الى هشـــيم ، ووثب ذهنى فى الحال يتأهب لاســتقبال الظلام ليـال طويلة أخرى قادمة ، فالله وحده يعلم متى يقدر لى أن أشـــترى مصباحا جديدا بعشرة قروش أو أكثر ، تذكرت أن زجاجة المصباح كانت مشطوفة الهامة ضائع نصف رقبتها وكنت أستعيضه بقرطاس من الورق يتجدد كلما احترق ٠ توقعت أننى لو نســـيت خـلال الاستغراق فى النوم ومددت ساقى فان شظايا الزجاج وهشيمه سوف تنغرز فيهما وتعلق بوبر البطانية ٠

بدت المنطقة المتاخمة لقدمى كحقل من الألغام محاط بأسلاك شائكة ، ازددت تصلبا ، لصقت وركى فى بطنى حتى لامست ذقنى ركبتاى ، عدلت من وضع يدى فطوقت بها ساقى كأنما ذلك سيمنعهما من مغادرة هذا الوضع فيما لو غفلت عنهما ٠ اســـتمرت الريح تعصف وأزداد انكماشا أحاول ادخال أعضاء جسمى فى بعضـــها كأننى دودة القز تســـعى لصنع شـــرنقة حول نفســـها بالخيوط الحرير فاخر الحرير وأنا بخيوط الأنفاس ساخنة الأنفاس أنســـج

رقاعا تمتد تتمطى فوق لحمى الناشف الضئيل المكون من ردىء الخبز والملح والفول والأعشاب والحشائش والنفايات الأجنبية ·

بدا كأن بين الريح وبينى « ثارات » شخصية غامضة مجهولة وعميقة راحت ترسل وفودا من صريخها وأنغامها الجهنمية الى أذنى من منافذ لا حصر لها فى كل الجدران ، ســـرعان ما بدأت أصواتها الحادة تزداد اتساعا وسطوة وأزداد تيبســـا ورغبة فى الامحاء تماما ·

بدا كأن الريح انطلقت من عقالها تضاعف صوتها وسطوها وثقلها راح يزحف فوق جسدى مباشرة يزغرد بوحشية بعشـرات الأصوات · صرت أرتعد أنتفض الى أن كفت الريح فجأة عن الهبوب ثم أخذت أصوات أخرى تقرع أذنى وجسدى متضاعفة متتالية ، راح الايقاع ينثال بدفق يرجنى فتبين لى أن الجدار الذى كان مواجها للريح قد تهاوى فوق جسدى مستريحا بعد طول نضال وهزهزة وكان الثقل يتزايد فوقى الا أننى استسلمت لسمفونية المطر وقد وقر فى أعماقى أن الشمس وشيكة الشروق ·

# رفـائق ثلج أسـود

كنت أسير فى ما بدا أنه شارع عمومى عريض الى حد أفقدنى الاحساس بمبانيه المترامية على الجانبين ، فى مدينة تبدو اقليمية صغيرة ونائمة فى أحضان صمت أزلى طويل · وكنت متعبا ومترددا ، قد بدا لى أننى اذهب الى مشوار فى مكان ما من هذا الشارع ·

وضح لى أننى نسيت هذا المشوار مع اننى أسعى اليه بحماس يشوبه التردد ، فى تردد يشوبه الحماس بدا أنه لا مفر أمامى من الذهاب الى هذا المشوار واستمرار السير من ثمة فى نفس الشارع الذى وضح اننى أجهله تماما واننى ربما أتعرف عليه اذا عرفت طبيعة المشوار ، وربما اذا تعرفت عليه عرفت طبيعة المشوار على وجه التحديد !!

اكفهر الشارع فجأة احتشد بالضباب الكثيف ، تعذرت على الرؤية ثم انعدمت لبرهة وجيزة · بدا كأننى آلف هذا الضباب وان كنت أشعر الآن تجاهه برعب دفين ، تتسارع دقات قلبى أسـمع دبها يداخلنى يقين بانه أعلى صوت فى الكون كله هذه اللحظة ! · أشعر بالخطر ، أشعر كذلك اننى موشك على الدخول فى قلب ما يشبه الأمان !

خفت صوت الدب فى حنايا صدرى · رقت كثافة الضباب شيئا فشيئا ، بدا كأنها الثوب يتخلله البلى فى رقع كثيرة متحولة كسدى بلا لحم ولحم بلا سدى · منذ برهة طويلة جدا وأنا أتوقع مدى الرهبة التى ستعترينى حينما أرانى قد بدأت أدخل فى صفحة هذا النسيج المتحول اذ خيل الى أنه سيطبع بصمته هذه فى دماغى ·

فوجئت باننى ودعت خلفى عشرات من هذه الصفحة المتحولة ولاتزال نفس اللوحة تواجهنى بخيوط سوداء قاتمة تتخلل صفحة أقل سوادا عرضها عرض الأفق تتراجع قصادى الى مالانهاية ·

ينتفض الرعب فى قدمى،ارتفعت فروة رأسى اتسعت حدقتاى · ميزت أن رقائق السواد التى كانت تسد ملآء الأفق راحت تتساقط كرقائق ثلج أسود لتكشف عن مساحات مبيضة قليلا ، سرعان ما بدت كأنها نوافذ على أفق مجهول · سرعان ما راحت هذه النوافذ تتسع شيئا فشيئا تجور على مساحات الظلام تحولها الى كتل هرمية سوداء · سرعان ماراح اللون الأبيض يتخلل هذه الكتل الهرمية السوداء يصنع منها سلالا من الخيوط الرمادية المنسوجة على أوتار عالية · وضح لى أننى سائر بين صفين من أشجار الكافور والجزورين والحناء والصفصاف والزيتون ، وضح لى أن يد بستانى بداع قد أبدعت فى خرطها بهذه الدقة الهندسية البديعة ·· فعرفت اننى سائر فى شارع أظنه الشارع الخامس على وجه التحديد، فى ضاحية أظنها ضاحية المعادى فيما يشبه اليقين ! ··

وضح لى أننى كنت أقطع فى ليل بهيم لا أذكر متى بدأ ، واننى

أخيرا قد بدأت أنجح فى امتطائه والوصـــول الى هذه اللحظة ..
وعرفت أنه قد بقيت من الليل ساعات قاتمة على أن ألف الشوارع المحيطة لادهنها بفرشاة اللون الأبيض ، ثم أتولاها بالدعك والصنفرة الى أن تتآكل جلدة الأفق الرمادية عن ثقوب تتســـلل منها خيوط الشمس .. حينئذ يحل لى أن أدلف الى عتبة العمارة المهيبة الكائنة فى عمق الشارع ، وأطرق باب شقة رفيق صباى ، الوحيد الذى أعرفه فى هذه المدينة ، لاجده قد استيقظ وتناول فطوره وتهيأ للخروج الى عمله ، فيصير من حقى أن أستخدم سريره فى النوم بضـــع ساعات .

# الأســـنان الحجريـــة

أضواء شاحبة كانت تبدو فى الأفق البعيد كثقوب فى جبهة الظلام الحالك · خيوطها حاملة الضوء العليل أوحت الى ان كتل الظلام ممتدة فى العمق الى آماد بعيدة جدا · وبدا أن خيوط الضوء أسنة من سنان الشمس حادة اخترقت جبال العتمة الصخرية صـــانعة لنفسها أنفاقا · أحسست أن المسافة بيننا وبين الشمس نفســـها خرافية وليس ثمة من سبيل اليها مالم تحشد الشمس أهبتها وتسلط كل ما فى جعبتها من سيوف تشق هذه الجبال فهى السلاح الوحيد الذى يمكنه النفاذ فيها ··

بدا أن هذه أول مرة آرى فيها الضوء بعد فتحة طويلة لست أذكرها ولا أذكر تفاصيلها · انتابنى شعور بالخطر ، ربما لرؤيتى المفاجئة للضوء · انتفض قلبى ، أخذت أصيح بتلقائية صـــيحات مندفعة : طفى النور ! طفى النور ! وكنت أعرف أن صوتى قد لا يبلغ أحدا ، بل كنت أحس أنه يرتطم بجبل الظلام فيرتد الى ساخرا من أصله السريع المضحك · شعرت أن شعر رأسى واقف كالشـــوك الصلب فى انتظار فاجعة لعلها طائرة من طائرات العدو تكون مختبئة فى ركن غائص من السماء المدلهمة تنتظر بشغف انبثاق لمعة ضوء لتحكم عليها النشان فتدمرنا ·

بدا اننى أعرف أن زمن الغارات علينا قد انصرم منذ سنوات وان هذا لم يغير من الأمر شيئا · صرت ارتجف خوفا من الضوء مع اننى منذ برهة كنت أرتجف خوفا من الظلام ، مع ذلك ظللت سائرا نحو الضوء فى حماس شديد وقد راحت فروة رأسى تهبط بالأشواك على مهل كلما احتوانى نفق الضوء ··

تزايدت سرعة الضوء نحوى بشكل أفزعنى ، يرتفع له أزيز يعلو كلما اقترب ، وكان لابد أن أوسع له الطريق ، فما كدت أفعل حتى مرق بجوارى ما بدا أنه سيارة مندفعة بأقصى سرعتها ·· تابعتها فاذا هى تلتحق بالظلام ولا يبدو من خلفها سوى عيون مرمدة ·

تعودت عينى على الظلام فاذا بى واقف منذ أمد بعيد جدا ، وكنت قلقا · بعد برهة جاء واحد فوقف بجوارى ، تبعه اثنان ، فواحد رابع ، فتيقنت اننا واقفين فى انتظار الاتوبيس ، ولم يكن أحد يتكلم مع أحد · انتبهت الى وجود دخان يتصاعد من جوف بناية كالحة فى مواجهتنا ، فتيقنت اننا لابد نكون فى انتظار المخبز حتى يفتح أبوابه ويبدأ البيـــع ، ثم بدا اننى متيقن من أنها الجمعيـــة التعاونية ، ثم فرحت قليلا لأن الجمهور لم يكثر بعد واننى سأستطيع الحصول على طعام للأولاد · وبدا اننى تعبت من الوقفة فجلست مكانى متقرفصا دافنا رأسى بين ركبتى ··

رفعت وجهى قليلا وبربشت بعينى ، فوضح لى أن على يمينى واحدا وعلى يسارى آخر ، وان وراءنا ثلاثة مثلنا ، ووراءهم مثلهم ووراءهم مثلهم الى مدى بعيد · وكانت العصى الغليظة تنهال على ظهورنا بقسوة ووحشية من مجموعة الى أخرى ، والصراخ من خلفى ومن حولى يرتفع الى عنان السماء طالبا الرحمة ، فلما وصلت

العصى الى ظهرى تبينت أنها من فروع الشجر وكانت تمزعنى وكنت أحاول الصراخ دون أن أجد صوتى ٠

ولم أكن أعـرف لماذا يضـربوننا لكنهم كانوا يرتدون الحلل السوداء ويبدو أن بينهم وبيننا عداء قديم متحكم لا أدرى له سببا ، وكانوا يطلبون من كل منا فى صراخ وحشى أن يقول : « أنا امرأة »٠ وكنا نقولها بالفعل لكنهم مع ذلك لا يكفون عن ضربنا ٠٠

ثم فوجئت باننا نجرى مذعورين فى رحبة واسعة والاشـباح السوداء تلاحقنا بالعصى٠وكنا نتعثر فى لحم بشرى تبينتأنهجثثمن سقطوا منا ميتين ، فيقشعر بدنى ولكن الاشباح السـوداء تدوس فوقها بالاحذية الغليظة محاولة تسويتها بالأرض ٠ ثم وقعت مغشيا على ٠ وكنت أشعر خلال الغيبوبة اننى متمدد على وجهى فوق الأرض وثمة أيد تجرجرنى من يدى داخلة بى فى غيهب مجهول لانهاية له ٠٠

ثم وجدتنى ممسكا ببلطة صغيرة فى حجم الكف أضرب بها فى أسفل جبل شاهق جبار وقد بدا أن هذه هى مهمتى الرئيسية منذ عهد طويل ، ولاحظت اننى ارتدى بذلة ورباط عنق وحذاء لكن البذلة مصنوعة من قماش أزرق كالح ٠ وكنت أتصبب عرقا وصدرى يرتفع وينخفض من اللهاث ٠ اسـترحت برهة مسـحت فيها عرقى ثم استأنفت العمل فاذا بى أجد شقا فى قلب الجبل فاندهشت كيف لم أره من قبل ٠

أشرقت فى ذهنى فكرة رهيبة ارتعت منها لأول وهلة ، ثم رحت أتلفت حوالى فى تلصص ، فلما لم أجد شرطيا يحرسنى ضـربت بقدمى فى بطن الجبل ومضيت ماشيا خلال الشق المتعرج ولاحظت أن البلطة لم تعد معى ٠ لاحظت أيضا أن الشق طازج وان مواضع الانشقاق فيه تبدو كأسنان حجرية بيضاء طرية ذات رائحة لم تلوثها الريح بعد ٠

اصـــطدمت بجزء لم ينفصـــل تماما فبدا كأســـنان متباعدة فى فكين مضـــمومين · وبدا اننى لو أمسكت كل فك بيد ووســـعت بينهما ما يســـمح بمروری فسوف أنجح لكن الاســـنان الحجرية كانت مدببة ومخيفة فبقيت واقفا مكانى لا أريم فى انتظار معجزة الهية تلهمنى الفعل المناسب · غير اننى بعد برهة وجيزة شـــعرت أن الفراغ الذى أقف فيه بين الشقين يضيق شيئا فشيئا حتى لتكاد الاسنان الحجرية تغوص فى جسدى ··

رحت أنظر من خلال الاسنان الحجرية المتلاقية من فكى الشقين فى الجزء الذى لم ينفصل تماما فرأيت شبكة من الظلمة على أرض مضيئة بعض الشىء راحت تترى من خلالها مناظر عجيبة : رجل أنيق يلوط بطفلة صغيرة ·· شاب نحيل يمسك آلة موسيقية ويعرض للبيع فتيات عاريات ·· قصاب جسده مرصع بالخناجر التى تقطر دما يمشى فى خيلاء وخلفه موكب كبير يزفه بالطبل والزغاريد ·· وكان واضحا أنه يرانى ويقترب نحوى ·· وقد شرعت أصرخ طالبا النجدة لكننى لم أجد صوتى ·

# وفــود الضــوء

كان الصمت قد ضرب أطنابه بيتنا لوقت طويل جدا · ولابد أن ثمة أصدقاء كانوا يسيرون معى فى الطريق بدليل ان طنين الكلام الذى لابد أننا كنا نتبادله لايزال يملأ اذنى بهدير راعش فلابد اذن أنه كان كلاما خطيرا · أمن طول الصمت أو طول الطريق أو طول الزمن هذا الملل الذى يبدو انه هو الذى يكدرنى الآن ؟ ··

وكان قد وقر فى ذهنى أن من لابد أنهم كانوا أصدقائى قد ابتعدوا قليلا منفردين بالكلام أو بالصمت ، وكان قد وقر فى ذهنى أيضا أننى أسرع الخطو للحاق بهم ، وكنت مشغولا بحبك نكتة ما أدخل عليهم بها لعلها تبدد جحيم هذا الصمت ··

لكن خطواتى المسرعة اللاهثة لم تلحق بشىء ، فاذا هى تزداد سرعة ، واذا أنا أسير فى الطريق وحدى لاهثا وليس ثمة من بشر على الاطلاق · وكنت أسمع لخطواتى صوتا مدبدبا ، مالبث أن صار زلزلة ذات وقع رهيب ·· نظرت خلفى متوجسا ، فاذا بناس كثار من كل الأعمار والألوان يجرون خلفى قادمين من حوارى جانبية ومن عمق الطريق الذى اتضح أنه شارع ملىء بالعمائر الحديثة من زجاج والمونيوم : ظننت أنهم يطاردوننى لكن لم أفهم لماذا المطاردة فأسرعت فى الجرى دون أن أتوقف لاسأل علام المطاردة · فلما أسرعت بدءوا يطاردوننى بالفعل ··

وبدا اننى لابد قد أرتكبت جرما خطيرا ، وبدا أننى أبحث فى ذهنى عما أكون قد فعلته ضد كل هؤلاء · فى الحال تضاءل عدد المطاردين فآب الى ثلاثة شبان صغار يلهثون خلفى باصرار شديد ورأيتنى طفلا صغيرا يجرى بأقصى سرعة فى طريق زراعى تحاذيه حديقة طويلة وارفة ، وكان واضحا ان هؤلاء الشبان الثلاث هم ابناء صاحب الحديقة واننى قد سرقت حشـــو جيوبى كلها بلحا وجوافة من أشجار الحديقة متوهما أن كون أبى هو الجناينى الذى يزرعها ويرويها ويشذبها سيشفع لى ذلك · لحظة أوشكوا على الامساك بى أطلقت صرخة فزعة واندفعت بآخر رمق كطائر فى فراغ رمادى ·

وجدتنى فى حارة مبنية بالطوب الأسود ، تبينت بعد برهة انها حارة « الجفار » فى بلدتنا · وكنت أجرى بقلب خافق ومخلاة المدرسة تنشال وتنحط على قلبى ممسكا بطربوشى القصير فى يدى · وكنت أعرف أن « أولاد بقوش » تاجر الحبوب والاقطان يتربصون بى دائما عند هذه الحوداية ليضربونى دون سبب ، ثم تذكرت أننى كنت نفرا فى حقولهم قبل أن أصير تلميذا معهم وأنهم لهذا يضربوننى ··

صرت فى شارع القطاطنة الأكثر أمنا ·· مع ذلك لا أكف عن الجرى ·· بدا لى أن السبب فى الجرى هو اقترابى من دار الخاصة المهجورة منذ زمن بعيد تسكنها العفاريت وقطاع الطرق · ابتعدت دار الخاصة وأنا موزع بين جرى وهرولة · بدا أننى لست أحس بالوحشة رغم ان ثمة أمرا يبدو خطيرا قد حدث ! ··

لحظتها رأيتنى مرتديا كامل ثيابى ومنظـــارى الطبى الأنيق وأحمل حافظة أوراقى الجلدية وكان يبدو أننى قادم مـ نالصحيفة التى أعمل محررا بها وكان يبدو أيضـــا اننى قد انشـــغلت فجأة بمحتويات حقيبتى اذ رحت أحاول استعادتها فى ذهنى حتى توثقت

من أنها بعض أوراق وبعض كتب فى الأدب أنوى عرضها لصحيفة عربية لها مراسل يحاسبنا من جيبه الخاص بعشـــر جنيهات عن الموضوع وهو حر التصرف فيه بعد ذلك ونحن نقبل عشرا خالية من الضرائب ونظرات لمن نرطب بها الجفـــاف الصـلد ونبل ريقنا الناشف · ثم بدا اننى قد صرت متوجسا بعض الشىء من محتويات الكتب فيما لو صودرت ··

لحظتئذ انتبهت الى أننى واقف بين جمع هائل جدا فوق كوبرى المشاة فى ميدان بدا أنه ميدان التحرير وكان بجوارى بعض الأصدقاء الاعزاء تفصلنا الجموع برهة لتلاقينا فى أخرى فيرتسم على وجوهنا طابع طفولى باسم فيه الكثير جدا من الغبطة والبهجة · كان المنظر جميلا بل جميلا جدا كقصيدة شعر كمنظر طبيعى حافل بالألوان فى لوحة خالدة بجميع ألوان الوجوه والثياب وأشـــكالها وجميع الأعمار ونزقها ، والكوبرى كله ســـاير داير يعج بالخلق كالورود تتسـلق الأسوار ، ومن فوقهم أدوار أخرى من أسوار البلكونات والسطوح طارحة بالورود البشرية تكاد رءوسها فى العلالى تتصل برءوس جموع هائلة مقبلة من جميع الشوارع المطلة على الميدان تحمل اللافتات تزأر بالهتافات المتاعة الصاعدة كالنحيب الصادر من قلب موجوع بألم سرمدى : « احنا بنسكن عشرة فى أوضه وهو بيلبس آخر موضه » ·· « عملتوا ايه فينا واليهود فى ســـينا » · الأصوات تأتى من كل فج عميق وتصب فى الموكب غضبة شرسةمخيفة مبهجة معا · الحرائق هى الأخرى كانت ترسل ألسنة اللهب من كل صدر تتطاير فى الفضاء تسابقها الزغاريد ! ··

ثم وجدتنى والأصدقاء قد صرنا فى قلب الجموع الهادرة فى الأرض واننا ننظر الى جموع المطلين فى سعادة وكان واضحا اننا سعداء بان قد صرنا بدورنا فرجة لهم منذ التحقنا بموكب الفاعلين · على أننى لاحظت بعض تردد لايزال يبعدنا الى الأرصفة ويسحب

صوتنا عن جماع الصوت الهاتف . وضح أننى كنت أفكر فى نفس الخاطر الذى يفكر فيه بعض الأصدقاء المرافقين ، اذ همس أحدهم فى أذنى بدون مناسبة : سأقول اننى صحفى وكنت أرافق الموكب بغرض مهنى ! .

ضحكت وضحك الآخرون لمداراة الخوف الدفين الذى ومض على وجوههم فجأة ، قال أحدهم : زمانهم صورونا وانتهى الأمر .. فبدا اننى قد استرحت لهذا الخاطر ..

فى الحال فوجئت باننى وهؤلاء الأصدقاء نجرى وحدنا فى شارع مظلم محاذ لجسر سكة حديدية أغلب الظن أنها خاصة بالمترو ، وكان يجرى خلفنا ناس آخرون ، تلاحقنا طلقات الرصـــاص وتحف بنا الحرائق من كل ناحية وكانت ألسنتها وألسنة الرصاص المنفجر هى الشىء الوحيد الذى ينير لنا الطريق لبرهات خاطفة وثمة صيحات هازئة اظنني سمعت اننا محكوم علينا بالموت اذا خالفنا القانون وظهرنا ليلا فى الشوارع ، أظننى سمعت أن عربة أتوبيس تتأهب للقيام على مبعدة فاذا وسط جمع هائل نندفع فى الجرى بأقصى ما فى البشر من عزم وكان واضحا اننا نريد أن نعتصم بالعربة كأنها حصن الأمان أيا كانت وجهتها ..

أشرفنا على رحبة صـــغيرة بين مبان كثيفة فاذا بدبابة من دبابات الجيش تصـــوب مدافعها نحونا . ارتدت بنا الجموع دفعة واحدة لتتصادم وتقع فوق بعضها صارخة . تدفقنا فى شارع جانبى ضيق ، جوبهنا بفوهات المدافع تستطيل نحونا وتستطيل .. اختفت الأبنية تماما بل اختفت السماء وصرت ومن حوالى مدفونين بين كتل من الأجساد تزحف الى الأمام تارة لتستدير فجأة فترجنا ثم ما تلبث أن تستد وترتد ثانية وظللنا هكذا أمدا طويلا بدا كالدهور .

ثم لانت حاشية الزحام شيئا فشيئا ثم انجاب الضغط عن الأجساد ثم انجاب الأفق ..

فاذا بنا جماعات جماعات طال بها الجرى واللهاث وكان على كافة الوجوه حزنا بهيجا وفى العزائم حماس باهر وفى الجباه تطلع سامق نحو الأفق العالى . وكان واضحا أن شيئا خطيرا قد حدث وشيئا عظيما يحدث الآن فيجمع بيننا واننا غير مطاردين بل مندفعين محض ارادة محض تلقائية فبدا لى أننا هرعنا - لابد - لاستطلاع الغد . الأجساد الزاحفة تتكاثر تتصادم فى عنف تعتذر لبعضها تقبل الاعتذار فى رقة وسماحة .

ثم صرنا الى اعصار رهيب يزحف ببطء لكنه بطء السرعة التى تبدو من فرط سرعتها كأنها ثبات . فوجئت بأننا قد عدنا الى نفس الميدان من جديد لنجده يشغل بالبشر ولا مكان فى أرضه أو سمائه لقدم أو متسع لبعوضة ، مئات الملايين من الرءوس والحناجر والأيدى يصدر عنها زئير خرافى كأنما الكرة الأرضية تزفر تصرصر تبث ماتراكم فى جوفها من ألم فيصعب على أن أعرف ان كان ما أسمعه غناء شجيا أم بكاء أم صلوات أم تراتيل ، لكن ثمة طائرات تئز فى السماء رائحة غادية الى أن ظهرت بينها طائرة هليوكبتر أخذت تتهادى فوق رءوسنا صانعة ما يشبه الفرح الكبير يتساقط منها ما يشبه حشرجة البكاء والنحيب .. فعرفت اننا فى ميدان التحرير حقا واننا نودع جثمان الزعيم عبد الناصر وان ملوك وزعماء الكرة الأرضية قاطبة جاءوا يشاركوننا الشرف ..

ثم رأيتنى واقفا وحدى فوق كوبرى المشاة فى نفس الميدان وكانت الدنيا ظلاما حالكا والأرض من تحتى مليئة بالحفر وكان الصقيع ينفضنى وقد بدا لى أننى محتمل له ، ثم بدا لى كأننى على موعد مهم جدا مع مجهول سوف يهجىء هاهنا واننى فى شوق شديد اليه وعلى ثقة من مجيئة .

# الموكب الذى رأيتــه فى بيتنا

كنت مقبلا نحو بيتى وثمة اعتقاد بأننى قادم من سفر طويل مرهق ·تذكرت أن عربة الاتوبيس قد ألقت بى عند محطة بعيدة بعد أن جردتنى من آدميتى وأننى قطعت المسافة من المحطة الى هنا سيرا على قدمى ··

تأهبت لدخول البيت فاحتجزتنى بحيرة منطرحة على أرض الشارع تمتد من عتبة باب بيتنا الى حيث أقف وتخترق لنفسها روافد لا حصر لها تزحف نحوى فعرفت أنها مياه المجارى الطافحة هكذامنذ ما يزيد عن ثلاثين عاما · وكان على أن أمد بوز حذائى بحذر أتحسس قطعا من الحجارة وقوالب الطوب وضعناها وسط محلول الغائط لنمشى فوقها بدربة وبهلوانية · تذكرت اننا كنا قد تحررنا من هذه البحيرة القذرة منذ مد ة قصيرة ، ثم تذكرت أن هذا يحدث كثيرا وأنها سريعا ما تعود كقدر لا مهرب منه ··

وقفت حائرا لا أدرى ماذا أفعل لكى أدخل بيتى · وكانت الدنيا ظلاما حالكا ومن المستحيل أن تتعرف القدم على أى نتوء تدوس فوقه · فكرت أن أنادى على أولادى كى يضيئوا لى المصباح المعلق على الباب علنى أستطيع عبور هذه البحيرة · لكن البيت كان يسبح فى ظلام دامس فأينقنت أن النور مقطوع عن المنطقة كلها · مع ذلك

رحت أهتف باسم ابنى بصوت خافت بشىء من الحرج ثم بجرأة ثم أخذت أجأر بالنداء لكن بلا جدوى · وكانت حافظة الأوراق المعلقة فى كتفى قد بدأت تثقل وينتابنى احساس بأننى يجب أن أتلخص منها اذ بدت كأنها مصدر كل متاعبى ··

أخذت أروح وأجىء فى انتظار معجزة طارئة · وكنت ألهث وليس فى ذهنى سوى طفلى الصغيرين يبكيان أمام باب الشقة بعد أن كلت يداهما الحلوة الطرية من الطرق على الباب ، ثم ارتددت مذعورا فى اتجاه البيت وقد جاءنى يقين مفاجىء أن أحدا من أولادى لا يوجد بالشقة ، فصرعنى الارتياع حتى أعجزنى عن الصراخ ، وتذكرت أن زوجتى كثيرا ما شمرت ثيابها وخوضت فى قلب الغائط حاملة الأولاد واحدا وراء الآخر ، وجاءنى احساس بانه قد آن لى أفعل ذلك أنا الآخر ولو هذه المرة فقط بغية الاطمئنان عليهم ·

أوشكت على الفعل لكننى تسمرت فى وقفتى على البقعة الناشفة ربما لشعورى بان الثياب التى أرتديها هى الوحيدة الصالحة للخروج · تقرفصت محاولا النظر فى مياه الغائط الزرقاء كالنيلة لعلنى أتبين مواضع الاحجار الغارقة تحت الطفح الزائد ، فرأيت بقع النجوم وشرخة القمر الكئيب وأسطح البيوت ورأيتنى نقف جميعا على رءوسنا فى محلول الغائط الذى بدا أنه لم يعد كريها ·

اذا بى قد تربعت مستريحا على شاطىء هذا المستنقع الذى بدا لى أنه مصرف نمره تسعة فى قريتنا ، أمسك ببوصة السنارة لاه عن غمزها فى تلذذ حيث انى مشغول بتأليف أغنية حب سأبعثها اليوم الى البنت « رئيفة » التى أحبها ··

ثم اذا بى متربع وسط رهط من أصدقاء صباى على مصطبة فى مواجهة شباك حبيبتى فى الطابق الثانى لبيتهم المبنى بالطين

استمتع باستعادتهم لى مقاطع الأغنية التى ألفتها استمتع أكثر بعدم اقتناعهم البادى فى عيونهم بأننى أستطيع تأليف هذا الكلام المسبوك، عيناى معلقتان بشـــباك الطابق الثانى القــريب جدا من الأرض والضوء العليل ينساب من خلل أعواده الحديد ليلقى بيننا شيئا من الونس ، صورة وجه الحبيب تنطبع على وجوهنا وصدورنا من حين الى حين كلما أطلت هى أو مرت ببطء كأنما لتبلغنى أن صوت رسالتى قد وصل ··

وكنت أضرب فى عمق الليل متأبطا كتابا مطويا أغلب الظن أنها قصة مجدولين أو تحت ظلال الزيزيفون أو ربما كانت الشاعر للمنفلوطى ، أغلب اليقين أنه ذلك الكشكول الذى جمعت فيه مقتطفات من أشعار الحب والغرام وحكم أبى الحسن البصرى وطرف أحشرها حشرا فى مواضيع الانشاء ، وممسكا باليد الاخرى جرابا شبكيا به حفنة من أسماك جافة تحمل لون البرك لم تعد تصلح لشىء الا كدليل على اننى كنت أقضى كل هذا الوقت فى الصيد اذا ما عنفت من أحد ··

بـدا لى كأننى أعـــــرف أن هذا محض افـــتراء أتـــذرع به وأننى عدت من رحلة الصيد وراء الأصيل فقضيته ومعظم الليل مطوفا حول دار حبيبتى من صديق لآخر من مجلس لآخر حتى تنجح لعبتى فيرسوا المطاف بجلسة المساء تحت شباك حبيبتى · وبدا كأن معرفتى لهذا لن تغير من الأمر شيئا حيث قد اخترت درب الحبيب محتملا بل متناسيا كل ما عداه ، ثم وضح لى اننـــى آخذ سمتى نحو دارنا فى القرية ··

باب دارنا دائما بلا ترباس من الداخل وهكذا وجدته · دفعت الباب ودخلت · أبى مضطجع فى المندرة يقرأ على ضوء اللمبة نمرة خمســـة فى كتاب أثق أنه كتاب « دلائل الخيرات » ، أمى متمددة

بجواره على الأريكة · لم يشعر أبى كالعادة ·· تسللت الى الغرفة التى ننام فيها كى استخفى بسرعة تحت البطانية وأتصنع الاندماج فى النوم العميق ··

دفعت الباب برفق حتى لا يزيق فينتبه أبى وتصحو أمى فلا أخلص من تعنيفهما وكنت أخشى من عصلجة الباب وجموده لفرط ما تراكم على مفصلاته من صدأ · لدهشتى انفتح الباب بسهولة ·· ففوجئت باننى قد دخلت صالة شقتى التى أستأجرتها فى المدينة بعرق خمس سنوات قضيتها مغتربا فى بلاد وأزمنة قاحلة تضـــخ الفراغ والسأم والموت المبكر · رأيت زوجتى منزوية فى عمق الصالة ترضع طفلنا الوليد ، وبقية الأولاد يجلسون بدون مذاكرة فيما يشـــبه الاحتفال الصامت · أغلقت الباب ورائى وتقدمت منهم قائلا :

سا الخير ياولاد ·

وكانت زوجتى على غير العادة مبتسمة فأدركت أنها مرتدية وجهها الذى تقابل به الضيوف ·

قلت : فيه ايه ؟ ·

اتجهت أنظارهم ورائى ، فاستدرت نظرا ·· فوجئت بحبيبتى «رئيفة» تجلس على الكرسى المواجه لزوجتى·كانت كعهدى بهاصغيرة فاتنة·أحسست بارتباك شديد·أخذتأنظر حوالى كلص انكشف أمره أمام أولاده ، لكن بدا لى كأننى متماسك وكأن الأمر طبيعى ··

تقدمت فى حماس لاسلم عليها · فلما اقتربت منها اختفى وجهها الحقيقى خلف طبقة من الأصباغ الملونة بشكل فاقع · كانت واقفة فى استقبالى تتقصع داخل فستان آخر موضة محزق يكشف عنأسرار جسدها فبدت أكثر عريا من العرى · تذكرت أنها كانت عنوانا على

الانوثة فى بلدتنا وأنها كانت أكبر مستفزة لرجولة الرجال من فرط حيائها فما بالها الآن مبتذلة تتشدق باللادن بشـــكل مثير ممجوج تقول كل عضلة فى وجهها أنها مومس حقيرة من بنات الليل مسفوعة بجمال خارق · اشتهيتها رغم ذلك لكننى سرعان ما شعرت بالتقزز بالغثيان بالحطة والحرج الشديد ·

تقصعت هى مرسلة خلال التشدق باللادن صوتا طريا ممطوطا كعرق العسل حلوا لكنه لزج يعلق باليد والثياب · تذكرت اننا لم ندفع القسطين الآخيرين من ثمن الغسالة الكهربائية حيث تعارض دفعهما مع دفع أقساط المدارس · تذكرت أن آخر أخبار حبيبتى عندى ·· منذ أوائل السبعينات تقريبا ـ كان خبر زواجهـــا من ثرى ليبى ·

تذكرت اننى وزوجتى كثيرا ما تحـــدثنا عن حبيبتى هذه باعتبارها واحدة من بلدتنا انشـــغلت البلدة طويلا بأخبار الثراء الذى هبط عليها والأملة التى أصبحت فيها فأحســـست أن وجودها فى بيتنا الآن ليس جديدا بل ليس غريبا ، الجديد هوا ابنتها العروس التى تصطحبها وكانت نسخة منها قديما ·

ثم رأيتنى أجلس قبالتها مرهقا مهموما أسبح فى عرق لا أدرى ان كان من التعب المؤلم أو من الحرج · وكنت فى دوار شديد وكنت أفكر فى ما اذا كان قد ظهر منى شىء ينبىء عن علاقتى القديمة بها · خيل الى أنها تحدثت كثيرا جدا وأحسست بالفجيعة حين انتبهت الى أننى وأولادى مندمجين فى الفرجة على غانية مثيرة هبطت علينا من كوكب غريب ، وأن أفواهنا جميعا مفتوحة من البـــلاهة والذهول ورأيت الحياء يختنق فى عيون أولادى من هذه التى توشـــك أن تضاجعنى أمامهم وأمام ابنتها العروس ·

لا أدرى ماذا قالت رغم طول حديثها ، لكن خيل الى انها ذكرت انها مقيمة فى المدينة منذ سنوات وأنها تملك الستر ربنا يعطيك عددا من العتبات الحافلة بشقق التمليك تحت أمرك لو أردت لكن لنا عندك خدمة بسيطة أنت لها يا ابن بلدتي ياصـــاحب العشرة القديمة ـ وتتكىء على لفظ القديمة بنت القديمة ـ يروعنى اننى لم أعرف بعد نوع الخدمة التى جاءت تطلبها منى . والتى تعبت فى سبيلها فى البحث عن عنوانى ، والتى من أجلها ترشـــونى مقدما بتلعيب الحواجب والارداف وهز انكفاءة البطن وغمز العيـــون الكحيلة القارحة الواسعة تندب فيها رصاصة ، هذه مقدمة الرشوة فما بالك بالرشوة نفسها ! يروعنى أكثر اكتشافى بأننى يمكن أن أؤدى خدمة ما من أى نوع لأى بشر وأنا الذى انفقت العمر كله أسعى فى طلب الخدمات من الآخرين ! ..

ثم اذا بها تنهض واقفة دون أن أعرف ما اذا كانت قد أوضحت لى نوع الخدمة أم لا . وبدا أننى رغم توترى من عدم معرفة ذلك غير مرحب بالاستيثاق منه .. فنهضت ابنتها وسرعان ما نهضت أنا الآخر ونهضت زوجتي وقد بدا أننا جميعا مرحبين بتوديعها فيما يشبه الراحة بالخلاص منها رغم ما أثاره وجودها فينا من بهرجة .

سلمت علينا ثم مضت فى اتجاه الباب . فمضينا جميعا خلفها نودعها . فاذا بنا نودع موكبا هائلا راح يقبل من أماكن مجهولة من داخل شقتنا ويقبلون علينا مســـلمين واحدا وراء الآخر قبل اتجاههم الى الباب . ظننت لأول وهلة اننا نتلقى العزاء فى عزيز لدينا ، لكن الجمع كان مرحا ومبتسما وكانت وجوههم كلها مألوفة لدى وكنت أتمعن فى ملامحهم فيما أقول مبتسما كالأهبل فى الزفة :

أهلا وسهلا شرفتوا ٠

وكانوا يتتابعون فى كثافة لتتضح وجوههم أكثر فأكثر فأتبين فيهم أنور السادات بيجين ، النبوى اسماعيل ، الملك الحسن الثانى ، جولدا مائير ، بطرس غالى ، كمال حسن على ، الخديو توفيق ، فؤاد محيى الدين ، المشير عامر ، شمس بدران ، صوفى أبو طالب ، حسن الامام ، نجيب محفوظ ، حمزه البسيونى ، حسن المصيلحى ، صلاح نصر ، الملك فيصل ، الياس سركيس ، موسى صبرى ، سمير الاسكندرانى ، أنيس منصور ، صبرى أبو المجد ، توفيق الحكيم ، ابراهيم سعده ، ياسمين الخيام ، رشاد رشدى ، ومن هذا ؟ ٠٠ كمال عمار ؟ محمد العزبى ، محمود المليجى ، الرئيس نميرى ، شاه ايران ، كيسنجر ، فاروق الباز ، عبد الستار الطويلة عبد الرحمن الشرقاوى ، ابراهيم الوردانى ، ثروت أباظه ، محسن محمد ، ومئات أخرى من الفنانين وصحفيين والمعارف والملحقين والالاديش والمحاسيب ٠٠

داخلنى زهو كبير وابتهاج لمجرد أن يعرفنى هؤلاء السادة النخب ٠٠ ثم اندهشت بالغ الدهشة من أن يتجمع كل هؤلاء معا فى وقت واحد فى شقتى على وجه خاص فى هذه اللحظة ٠ اندهشت أيضا كيف استوعبتهم شقتى وكيف استطعنا أن نستضيفهم ٠ ثم داخلنى وهم لذيذ حلو بان خيرا وفيرا لاشك قد حل بدارى فى غيبتى على نحو ما استعدادا لقيام هذا الحفل المهيب الذى قدر لى أن أشهد ختامة ٠ ثم اننى أخذت أودع فلولهم خارج باب الشقة مطلقا صيحات الوداع حتى يسمعنى كل الجيران ويتفرجوا على هذه الأملة التى وجدتنى فيها ٠

ثم استدرت عائدا لاجدنى وزوجتى واقفين فى مدخل البيت فى عراء وسط ريح صرصر عاتية وكل منا يضم فى حصنه يطوى جناحيه على طفلين ينتفضان · وكان يبدو أن الريح قد أدركتنا خارج الشقة اثناء استقبالنا لخبر استشهاد أخى فى حرب فاصلة فى برقية هبطت منتصف الليل تطلبنى لاستلام جثة أخى وان الريح الغادرة صفعت كل شىء فى شقتنا فدمرته ودفعت باب الشقة فأغلقته دوننا · وكنا نجأر بالصراخ والعويل بأعلى صوت وأفظع ألم ، لكننا جميعا نضيع فى عويل الرياح ·

# من مأثورات عائلة شبراوى

« سعيد بن شعوطه » يسمع طول عمره أن مصر أم الدنيا ، وأنها بلد العجايب • وكان من عادته أن يصدق كل ما يسمعه ، لكنه لم يكن مستعدا للتصديق اذا قيل له : غدا تسافر الى مصر • مصر مصر ؟ • أى نعم مصر القاهرة هكذا سأل : سعيد بن شعوطه » وهكذا تلقى الرد من عمه الشيخ على شخصيا •

ـ تف من بقك ياعم الشيخ على ، دى مصر لو شافتنى تهرب ولا يمكن تنهد •

لكن عمه الشيخ على لم يكن يمزح بل لم يكن فى حالة تسمح له بالمزاح •• فلكزه بعصاه التى هى فرع من الرمان وقال فاتحا فمه الخرب عن آخره :

ـ مرات عمك متأخرة فى القصر حتروح تجيبها بدالى •

عرف سعيد بن شعوطه ، أنه القصر العينى ، ذلك الذى يقع فى مصر القاهرة ، والذى نقلت اليه زوجة عمه الشيخ على منذ أكثر من شهر فى زفة واحتفال مهيب جعل أولاد الأسرة يتناسون مصيبة المرض ويقولون متفاخرين فى كل مناسبة : أدخلناها القصر العينى • فهل يكون القدر اللطيف قد كتب لسعيد بن شعوطه أن يحظى بأكبر

مفخرة ينالها فرد من أسرته هى أن يسافر الى مصر القاهرة أم الدنيا وبلد العجائب ؟ · وتقدم من عمه الشيخ على فأحتضنه رابتا عليه بحنان :

– رقبتى ياعم الشيخ على ·

وهكذا بعد ثلاث ساعات فى عربة أجرة وخمس فى قطار الدلتا وصل الى مصر مع مقدم المساء · وبعد بهدلة فى الاتوبيس وصل الى القصر العينى مع وفد من البلدة هو فيه ممثل العائلة · وماصدق أن أطمأن على زوجة عمه الا ونزل يحجل فى الشارع الملعلط البراق ، وكانت الابتسامة تتهدل على شفتيه كلما اقترب من جماعة يسألها عن شىء فتزور عنه وتمضى غير عابئة به ، أو يلقى السلام على أحد فلا يرد عليه أو يضحك لطفلة حلوة فتكشر فى وجهه بخوف ·· حتى صار من فرط التعب والكمديبدو كخيال المآتة دبت فيه روح هزيلة تكفى بالكاد لتحريك ساقيه وذراعيه بخطوات يضيع صوتها فى الطريق الصاخب الحافل ·

لكنه ظل يمشى ويمشى ، مبهورا تارة خائفا تارة أخرى ، الى أن توغل فى حارة أودت به الى حارات ، كان خلالها يحس بالراحة تتسلل الى نفسه شيئا فشيئا ، اذ كان شيئا فشيئا يلتقى بناس تشبهه فى السحنة والملامح وترتدى نفس ملابسه · وحين سأل أحدهم عن شىء رد عليه ببساطة ، بل أطال معه الوقوف بعض الشىء ، ورنت فى أذنه كلمة : أنت فى سيدنا الحسين ، فداخلته البهجة العظيمة وانبرى يقرأ الفاتحة مثنى وثلاث ورباع لكل من وردوا على ذهنه من أحياء وأموات ، وبين الفاتحة والأخرى يرى ناسا أكثر شبها به ، لكنهم ماضون فى سبيلهم لا يعبأ أحدهم بالآخر ، حتى الذين يمشون متجاورين ، وحتى الذين تتوحد ملامحهم بنفس الدم والشكل يمشون دون كلام ·· فكان يغتاظ ويكبت فى نفسه أصواتا تشبه العراك ··

أول ابتسامة حقيقية رآها فى مصر أم الدنيا ، أقبلت عليه طائرة من وراء نصبة خشبية أنيقة تتناثر فوقها أكواب ودوارق زجاجية مليئة بسـائل ملون عرف أنه نوع من الشـربات ، وحولها من يشربون · ظلت الابتسامة تجذبه بقوة وحب الى أن حاذى النصبة ورأى نفسه يقف تجاه صاحب النصبة صاحب البسمة المشـعة ، ويقول : بكام الواحد من دول ؟ وأشار الى الأكواب ·

فقالت الابتسامة : بقرش يابلدينا ·

ففى الحال دب « سعد بن شعوطه » يده فى المحفظة أم جزلان وأخرج قرشا عليه صورة الملك فاروق مشرشر وأحمر ، وقال كأنه يخطب الود بصرف النظر عن الشراب :

ـ هات بقرش ··

بنفسه سلمه الرجل كوبا ، تناوله ، « سعيد بن شعوطه » ورشفه فاستحسن مذاقه وبرودته فشربه على جرعات بطيئة جدا فيما هو يواصل النظر فى وجه الرجل يسـتفزه للكلام معه · وظلت الابتسامة تتسع وتتسع ، بل وتتراقص فرحة : ومنين يابلدينا ·· م الحته الفلانية ·· أحسن ناس ·· تعيش ياحاج ·· أصل الحكاية·

وهكذا حكى « سعيد بن شعوطه » حكايته من طقطق لسلامو عليكم وعرف أن صاحب البسمة المرحابة اسمه شـبراوى وأبوه يوسف بن ادريس من الشرقية بلد الكرم على سن ورمح ·

ده من أصلك ··

وأن شبراوى كان مثله قد حلم بالسفر الى مصر أم الدنيا وجاءه ـ فجأة ـ مشوار اليها ، فمنذ جاءها بقى فيها لا يبغى فكاكا ، وليس يدرى ان كانت هى التى ابتلعته فى جوفها أم أنه غافلها وانساب فى امعائها ، لكنه جاور الحسين ومن جاور الكريم لا يضام·

معلوم والله ياحاج ..

وخليها على جناب الله .. ومع السلامة .

ومنذ عودة « سعيد بن شعوطه » من مصر وطوال عشرين عاما بالتمام والكمال وهو لا يكف عن ذكر هذه الحادثة بمناسبة وبدون مناسبة ، فيكفى أن تجىء ســيرة مصـــــر فى كلام عابر لكى ينبرى « سعيد بن شعوطة » فيحكى قصة الابتسامة وصاحبها ، التى تعطيك فوق البيعة شربات تشـــربها مقابل قرش واحد يابلاش . ويشفع قوله بيمين مغلظة أنها شربات فيها بركة الحسين .

كانت هذه الحكاية هى الدليل الوحيد القاطع على أنه ـ ذات يوم أخذ فى التباعد ـ ذهب الى مصر أم الدنيا ووطأها بقدميه .. وكان يصنع لصاحب الابتسامة مقاما صغيرا مشرقا بجوار مقام الحسين ..

ولم يكن سعيد بن شعوطة يتصور أن القدر المراح سينيله المفخرة مرتين وأن يقدر له بعد مضى عشرين عاما بالتمام والكمال أن يسافر مرة ثانية الى مصر أم الدنيا ، وعن جدارة بالمفخرة هذه المرة ، فغدا يصطحب ابنه الكبير الى مصر لكى يؤجر له مسكنا فيها ويقف بجواره اذ يلتحق بالجامعة .. والله عشت وشـــفت ياسعيد يابن شعوطة ..

وهكذا ، وبعد ساعتين اثنتين هذه المرة فى سيارة الاسطى حمدى ابن حارتهم صار فى مصر يدب فوق أرضها ويراها رؤية العين ، وقد حلا له أن يجاهر بتجاهل الناس عن عمد كأنما ليقول لهم : طظ فيكم عرفت خصالكم ولكنكم لستم أهلا لى ، انما هناك من هو لي أهل وهأنذا متوجه اليه . وابنه لم يفهم شدة اصراره على زيارة الحسين قبل أى شىء ، لكنه لم يكن يرى الابتســـامة الضاوية المتربعة فى دماغ أبيه ..

أخذ « سعيد بن شعوطة » يخب فى جلبابه الصوف الجديد ذى الاكمام الواسعة ويعدل طاقيته وطوقه فى كل حين · يلف مع كل حوداية ويستقيم مع كلممر ويتوقف عند كل نصبة خشبية فى الشارع وابنه يتعجب ولا يعرف عم يبحث ··

رغم كثافة الزحام وارتفاع الصخب واشتداد سرعة كل شيء حوله ، فانه ــ أخيرا ــ وجدها ·· الابتسامة العريضة المشعة ·· غير أنها كانت هذه المرة قد حملت على كاهلها عشرين عاما ضخاما ، انطفأت فيها لمبات كثيرة ، وباتت تكشف عن فراغ هائل بين الفكين النحيلين ، وكانت واهنة ، تحاول اصطياد المارة من خلال الظهور والاكتاف والأشياء المحمولة ··

توقف « سعيد بن شعوطة » دفعة واحدة وصار يجز على أضراسه كأنما ليضبط انفعاله قبل أن يرتمى فى أحضان الرجل دفعة واحدة كدفقة الشوق الذى انفك سراحه بعد طول احتجاز · راح ينظر فى عينى الرجل بامعان نظرات ذات معنى ، فلا يظهر فى عينى الرجل أى انفعال جديد ، حتى بردت أطراف « سعد بن شعوطة » ، وكان القرش فى كفه لا يذكر متى جهزه ، فلما نظر له صـــاحب الابتسامة مستفهما تقدم منه أكثر ناظرا فى عينيه قائلا بلهجة ذات معنى :

ــ ·· وهات كمان بقرش ··

# سقوط الظل

جدار طويل يمتد على مساحة سبعة أفدنة ويرتفع الى سبعة طوابق من طوابق زمان ، سبعة شبابيك مستطيلة تنزل تحت بعضها من أعلى طابق حتى الأرض ، ثم تتكرر متجاورة الى مسافة بعيدة جدا · فاذا انتهى الجدار المستطيل الحافل بعدد لا حصر له من الشبابيك حودت معه فاذا بك أمام بوابة القصر الحديدية التى باتت غائرة فى الأرض وقد علاها الصدأ طبقات فوق طبقات · دعنا منها فلسنا نزمع دخولها ولا أحد يجرؤ على ذلك ، رغم عدم وجود حراس عليها سوى أشباح الزمن والرطوبة والخراب ·

انما يكفى أن تعلم أن هذه هى بوابة قصر الخاصة ـ أى الخاصة الخديوية ـ الذى هو علم على بلدتنا حتى ليقولون عنا فى البلاد المجاورة اننا من القصر ، ويقولون فى وصف بلادهم للاغراب عنهم أنهم من بلدة على يمين القصر أو على يساره أو فى جواره وهكذا ·

أما الجدار فانه هو الذى يعنينا ، ليس فقط بالدرجة الأولى بل بكل الدرجات ، فأى حديث فى البلدة انما يدور حول هذا الجدار ، وأى خلاف يحدث بين الناس فبسبب هذا الجدار ، وكل رعب عشش فى قلوبنا فمن هذا الجدار ، حتى الذين يهوون تأليف الأغاني والقصص يكون الجدار محور خيالهم ومصدر خصوبته ·

خراب هو منذ تاريخ لا يعلمه أحد ، حتى الأجيال الكبيرة من عجائز البلدة يطلعون عليه هكذا منذ مولدهم ، وقصص الرعب والخوف والفزع هى العامود الفقرى لتراث أهل البلدة من الحكايات والنوادر السوداء والأغنيات والمواويل .

ومن عديد الأساطير التى توارثناها حول هذا القصـــر أن الخاصة الخديوية قد ابتنته ذات يوم موغل فى القدم ليكون بمثابة قصر لموظفى الدائرة المشرفة على ضيعة أفندينا ، وكان ناظر الضيعة شابا عشـــق ابنة أفندينا فتزوجها فاختاره أفندينا وابتنى له هذا القصر ، وكانت ليلة زفافه على العروس هى ليلة استلامه الضيعة هى ليلة افتتاح القصر ، فامتلأ ليلتها بالسعادة وظل يسكر ويضحك ويرقص حتى انفجر بركان السعادة بداخله فوقع ميتا ، ومن يومها أغلق القصر حدادا على صاحبه ، ويبدو أن الزمن نفسه قد نساه اذ لم يعد أحد يسأل عنه أبدا . وثمة أسطورة أخرى تقول أنه قصر الفرعون اذ أن هذا البناء الضخم المتين لا يقوم به سوى الفراعنة وهذه الأحجار السميكة وهذه الأخشـــاب العظيمة وهذه النقوش الدقيقة لا تتوفر الا لفراعنة ، يؤكد ذلك مئات من حكايات الثراء فى بلدنا عن ناس اقتحموه وخرجوا منه بتماثيل ذهبية وفضية وجعارين وحليات أخرى من الفيروز والماس ومن كافة التحف الثمينة .

وثمة أسطورة تقول ان بلدتنا هذه كانت عاصـــمة الحكم الرومانى القديم وأن هذا القصر كان قصر الحاكم ، والدليل على ذلك بعض الرسوم المنقوشـــة على جدرانه الداخلية البارزة من خصاص البوابة الحديدية .

وأسطورة تقول انه كان لأسرة اقطاعية من عهد نوح عليه السلام هربت من الطوفان فأدركها المصير بعيدا .. الى آخر هذه الأساطير التى لا تنتهى . الطريف فى الأمر أن بلدتنا ـ يالطيبة أهلها

وكرمهم الحضارى العريق ــ يتركون هذا القصر فى حاله كأن أصحابه سيحملونهم مسئوليته ذات يوم قريب ·

وهكذا لم يفكر أحد من بلدتنا فى أن يتعرض للقصر بسوء ، صحيح أن لصوصا من عشرات الاجيال اقتحمته وانتزعت منه خيرات كثيرة الا أنه ظل قائما يلقى على الناحية كلها بظل كثيف من الغموض الكئيب والارستقراطية الفاخرة ··

جداره فى النهار نعيم وفى الليل جحيم لا يطاق · ولابد لكل شاب أو شيخ من بلدتنا يمر بجواره نهارا أن يشعر بشىء من السموق يداعب طموحاته ورغبته فى الارتفاع الى الاعالى · وصوت المعارك وجعير الخناقات لا يكف عن بث الضجيج ووجع الدماغ طوال ساعات القيلولة لأن عشرات الفرق من الانفار والفلاحين والاجراء يسعون الى نيل شرف التمدد فى ظله ساعة أو ساعتين ، وثمة من يستخدم حديد شباكه فى فتل الحبال ، وثمة أطفال لا يحلو لهم اللعب الا تحت الجدار ·

فالجدير بالذكر أن بلدتنا كلها تقع فى مواجهة هذا الجدار تماما وتبدو للرائى من بعيد كأنها مرض جلدى كأنها ورم فى أقدام القصر · هذا الجدار كان يقصر من عمر النهار فى بلدتنا ويطيل من عمر الليل اذ يحجب الشمس فى عز شبابها كأنها عورة لا يصح أن نراها صبية ، فما أن يصفر لونها خلف الجدار حتى تكف الأرجل تماما عن السير تحت الجدار ، ويقبع الجميع داخل الدور ، ويجتهد الفلاحون فى العودة مبكرا من الحقول أو يبيتون هناك ··

فلقد كانت الأساطير القديمة حول القصر تجعل من كل اشاعات الخوف حقائق ، فكم خرجت النداهة من بين حديد الشبابيك واستدرجت الرجال والنساء والاطفال الى داخل القصر لتخنقهم أو

تورثهم الجنون ، وكل فرد من أفراد البلدة كبيرا كان أو صغيرا له ذكرى بل ذكريات خاصة به نفسه ولابد أن يكون له حكاية حدثت ليحكيها ، كان مارا من تحت الجدار يصلى الفجر فحدث له كيت وكيت ، حتى الذى لم تحدث له حكاية بعد يقشعر بدنه ويرتعد اذا أدركه الظلام وهو ماض الى البيت ، ولم تكن ثمة طرق أخرى آمنة لأن كافة طرق البلدة كانت تبدأ وتنتهى عند الجدار المشئوم · البيوت نفسها لا تستطيع أن تحجب الخوف عن القلوب اذ ما يكاد المساء يهبط حتى ينتظم جو البلدة كلها صوت فحيح يشبه صوت حيوان خرافى يشفط نفسا مكتوما ، ذلك هو صوت طائر البوم – أم قويق – الذى تتخذ أسرابه من القصر مسكنا تأوى اليه عند المساء فهى كالخفافيش تحب أركان الظلام والأماكن المهجورة وكانت العواصف الصوتية ترج السماء صيفا وشتاء برعد لا ينتهى ، فتيارات الهواء المنبعثة من الشبابيك المتقابلة تصفع الأبواب فيتهشم زجاج وتتكسر أشياء ، وحين يشتد أوار العاصفة نعرف أن أسرابا من طيور مختلفة جديدة دفعها حسن النية وسوء البخث الى محاولة احتلال القصر فيشب بينها وبين البوم والخفافيش ذلك الصـــراع المدمر ، وتظل رفرفة الأجنحة تصك فراغ الحجرات المتعددة بكل طوابقها ويتضاعف صوتها فلا يرق الا عند الشروق · ولما كنا قد توارثنا هذا الوضع أجيالا طويلة فاننا قد اكتسبنا قدرة على المقاومة والنوم مع ذلك ربما من شدة مايصيبنا من تعب ·

غير أن النوم قد استحال على جفوننا تماما منذ بضعة أشهر حينما لاحظ بعض المتأملين ممن يناموون تحت الجدار أن الجدار بدأ يسفسف التراب بل بدأ يميل قليلا منفصلا عن بقية القصر · وقد عارض الناس هذه الظاهرة فى البداية ولكنهم اضطروا لتصديقها حينما لمسوا بأنفسهم ازدياد المسافة الفاصـــلة بين الجدار وبقية القصر ، فلما قدرت بثلاث سنتميترات بدأ رجال البلد من ذوى الهيبة

يمرون على البيوت ويطرحون على الناس اقتراحا بجمع تبرعات ينفقون فيها على اكتراء عمال تقوم بتنكيس الجدار وهدمه .

وقد أبدوا جميعا تحمسهم ولكن حصيلة الدفع لم تزد على قروش قليلة دفعها الفقراء الملاصقون للجدار مباشرة ، أما غيرهم فكانوا يسلمون بضرورة الهدم على نفقتهم أى نعم ولكنهم يقولون : صبرك بالله شوية ، وكأن ثمة اعتقاد راسخ فى أذهانهم بأن مثل هذا البناء الذى عاش فوق الأرض من قبل زمن الطوفان ربما يمكن أن ينهار هكذا من تلقاء نفسه ..

الى أن استيقظت البلدة كلها من عز النوم ذات صباح مر المذاق على صوات وصريخ ملتاع وصفير وهياج ، وكل من يهب فزعا يجرى تلقائيا فى اتجاه الجدار ، ليرى الناس تتجمع فى فريقين متزايدين أحدهما عند أول الجدار والآخر عند آخره . الفريقان يتبادلان الصراخ والصياح والصفير حتى لا يمر أحد من تحت الجدار ، وفى دقائق معدودة كان نصف سكان البلدة المتاخمين للجدار قد جمعوا حاجياتهم وعزالهم وهاجروا الى الخلاء .

ثم بدأ الجدار يميل شيئا فشيئا والناس تتباعد مهرولة فى رعب ، ثم دوى فى الفضاء انفجار كونى اهتزت منه الأرض فقذفت بمن عليها الى أماكن بعيدة أفقنا على ناس غيرنا فوق وجوهنا ، ناس كلها بوجه واحد مصبوغ بالتراب السميك لا تعرف منه الذكر من الانثى وكنا قد أفقنا من ظلام دامس دام دهورا طويلة يغلف المنطقة برمتها ، رحمة السماء وحدها هى التى أزالت الليل بزخات مطر متواصل كانت تتساقط مياهه بطبقات من الطين حتى اغتسل النهار ووضح ، ورأينا كيف اكتسح الجدار بيوت البلدة بالدمار الرهيب . وطال الوقت على المهاجرين خارج دورهم التى اختفت تحت الانقاض . ولم يتذمروا ، خاصة بعد أن رأوا أن من نجت

بيوتهم من الدمار يشرعون فى الرحيل الى بعيد ، ذلك أن المنظر قد بات مخيفا ، فيكفى أن تتخيل جدارا بطول سبعة أفدنة وارتفاع سبعة طوابق وقد سقط ، فاذا بنا نواجه أخطبوطا من الحجرات المفتوحة على بعضها فوق بعضـــها يفح منها الظلام والاشـــباح ، فوهات مستطيلة كعيون مدينة خرافية ·

وكنت وعشرات من زملائى الشبان قد أصبحنا نكابد البؤس فى كل شىء ، طالت مدة الحياة المؤقتة التى نحياها كلاجئين الى الفراغ من الفراغ · وكنا قد وجدنا لأنفسنا قضية نشغل بها أنفسنا نبذل فيها طاقاتنا المبدعة ، حيث انطلقنا فى طول البلاد وعرضـــها نستميل قلوب الناس ونحثهم على التبرع لبناء مساكن تأوى أهلنا المشردين وتأوينا · وكانت حصيلة جهدنا طيبة ، لم نعرف مقدارها ولكن انبسطت لها أسارير الكبار · ثم بتنا نشارك بأيدينا فى رفع الأتربة وجمع الانقاض ويتحول التعب الى عذوبة ساحرة ·

غير أننا حين شرع العمال فى البناء فوجئنا بأن علينا ــ أولا وقبل كل شىء ــ اعادة بناء هذا الجدار نفسه ، وأن علينا أن تكون هذه قضيتنا · وكنت أوقن من أن ذلك سيستغرق عمرا آخر طويلا ، وأن ما جمعناه وما سوف نجمعه طوال الأعمار الباقية لن يكفى ــ بالكاد ــ لاقامة الجدار من جديد · وكنت موشـــكا على التفجر والتلاشى من الغضـــب ، لكننى داويت القهر بالعصـــيان فعالجنى العصيان بالعزلة فعدتنى العزلة بجبروت فردى يرفض الاذعان ، الا أنه كان بعصيانه وعزلته وجبروت فرديته كلما صافح الخلاء صار ظلا ممسوخا يتضاءل ويضمحل فى ظل ارتفاع الجدار ·

# فهــرس

الصفحة

. . الطموح إلى أن تكون كلمات اللغة مساوية تماما لمكونات « الحياة » : الأشياء والناس والذكريات والعلاقات والكوابيس وأحلام اليقظة وآلاف الآلاف من كل ما هو متعين أو محتمل . . هو طموح هذه القصص . ولكن الإبداع لا يعرف لغة محايدة ؛ واللغة فى الإبداع لاتظل هى مفردات القاموس : ففى الابداع يتشكل الموقف وتتشكل الرؤية فى ذات عملية تدفق الكلمات وتداخلها وتضافر دلالاتها . وفى الابداع تكتسب مفردات اللغة دلالات أكثر مما يمكن حصره ، مما تحيل أو تشير إليه فى عالم الحقيقة ، الذى تصفه ، أو تحصيه ، فحسب ، كلمات المعاجم . وليست هذه سوى جوانب قليلة من المغامرة الطليقة التى يخوضها المؤلف هنا : مغامرة إبداع « قصص » تتساوى كلماتها فى التأثير الذهنى والنفسى مع المكونات اللانهائية التفاعل والتراكب التى تتشكل منها « الحياة » التى يبدعها ، لاتلك التى يكتفى بوصفها . وهى فى الوقت نفسه ، مغامرة صياغة موقف ورؤية ، تتشكل فيها - وبها - الحياة المخلوقة بالكلمات فى مالا نهاية فى الأحراش والكوابيس وأحلام اليقظة واللحظات العادية أيضا ، وفى ما لانهاية فى الفجوات المحفورة والآلات والمبانى والنتوءات البارزة والنفايات والمبتكرات الجديدة والأماكن العادية : كأن العالم كله قد تحلل إلى عناصره الأولى ، فيما هو أيضا يتماسك بكيمياء سحرية فى صلابته التى لايمكن كسرها . إنه عالم من صنع الناس وعادى ؛ ولكنه أيضا عالم غير إنسانى وغير عادى ، وإن لم يكن استثنائيا ، ولا مستحيلا . عالم لايمكن قبوله ، ولايمكن إنكاره بأى قدر من السهولة .

٥٠ قرشا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب